

العنوان :

التربية عند جان

جاك روسو

مذكرة مكسلة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إشراف الأستاذ:

د. ضيف الله خوني

إعداد الطالبة:

فاطمة الزهراء عريعر

السنة الجامعية: 2016/2017

إلى أمي

إلى روح من كان ينبوع العطاء الفياض بحبه وتحكمته وبسداد رأيه ألي -رحمة الله عليه -، من علمني
أن العلم تواضع والعبادة إيمان والحياة عمل ،إلى من شجعني على مواصلة دراستي ،وشاءت الأقدار أن
لا يكون حاضرا لترى عيناه

ثمرة جمده

إلى أعمامي حفظكم الله، وإلى خالي أطال الله في أعمارهم

إلى أمي صاحبة القلب الكبير، وإلى أمي الثانية- عمتي السعدية- حفظهما الله

إلى إخوتي وأخواتي الذين أمدوني بيد العون حفظكم الله جميعا

إلى أبناء وبنات أعمامي

إلى أبناء أخواتي أميرة، خوله، أمين، عبد الصمد، دعاء، رحاب، بهيم، إلى أخواتي التي لم تلد لهم أمي كل من

أسيا، أسماء، نجلاء، نجاة، لامية

إلى عائتي الكبيرة وكل من يتحمل لقب -عريعر- إهدي هذا العمل المتواضع

فاطمة الزهراء عريعر

شكراً واحساناً

بسم الله والحمد لله ، اللهم لك الحمد ولك الثناء ، ولك الفضل ولك المن
على

توفيقك لي لإتمام هذا العمل

أتقدم بحزير الشكر للكتور ضيف الله الحوني

أتقدم بحزير الشكر إلى كل من الأساتذة الذين ساعدوني - عريعر

مصطفى - ، قروم مسعود

والى جميع أساتذة الفلسفة بجامعة المسيلة فلكم منى فائق الامتنان والشكر

وكما أتقدم بحزير الشكر إلى الأخ احمد المعتر بالله دمت في خدمة البحث

العلمي



مقدمة

إن موضوع التربية بدا في المجتمعات البدائية، وفي بعض الثقافات التاريخية الأولى الشرقية، والحضارة اليونانية القديمة، إضافة إلى الثقافة الرومانية، فكانت التربية عندهم آنذاك عبارة على أنها من تحدد للفرد ما يقوم به وما يشعر به، وما يفكر به، وأنها لا ترمي إلى نمو ذاته بل تهدف إلى كبتها، ومنه فالتربية في الثقافات الشرقية لا تختلف في طبيعتها ولا في أهدافها عن التربية القديمة، أما فيما يخص الحضارة اليونانية والثقافة الرومانية فنجد أن الأولى ركزت على الجانب البدني والعسكري على حساب التربية العقلية والخلقية، في حين أن الثانية اعتبرت التربية عملية الإعداد للحياة العملية والقيام بمهامها.

والتربية هي عملية تبدأ ببداية الحياة ولا تنتهي إلا بانتهائها حيث يقع تحت تأثيرها كل إنسان، ويمارسها الأب والأم والمعلم والشارع وغيرها، وهي ظاهرة إنسانية فردية واجتماعية بها حقق الإنسان وجوده كانسان على المستوى الفردي، وعلى المستوى الاجتماعي هدفها الوصول إلى تنشئة اجتماعية تقوم على أسس علمية، وغايتها تحقيق حاجات الفرد ومصالح المجتمع، فمن غير الممكن أن يبدأ أي فرد حياته دون نهج يتبعه، وهو ما يميزه عن غيره من الكائنات الأخرى، فالحياة لا تستقيم من دون موجه لسلوك الفرد، فهو بحاجة إلى رعاية منذ نشأته حتى شبابه.

وقد اعتبرت الفلسفة التربوية التي أنتجها سواء فلاسفة أم مفكرين تربويين نسق فكري متكامل، الذي اشتغل في مناقشة قضايا المجتمع وخصوصا في المجال التربوي محاولين وضعها في قالبها الصحيح، وكذلك بالنسبة إلى الفلسفة الطبيعية التي عرفت رواجها في أوروبا خلال القرن الثامن عشر والتي برزت نزعتها التربوية على يد أدباء وفلاسفة، ومن بينهم جان جاك روسو، وخلقت انعطافا على المستوى الفلسفي والتربوي، مما أدى إلى ترك الأثر على مختلف المدارس الفلسفية، وكل هذا يظهر من خلال كتاباته في هذا المجال، وخصوصا

كتابه "إميل" حيث كانت التربية عنده عادة، واعتبر إن خير عادة أن لا يكون للطفل أي عادة، ومنه تربيته تكون وفق قوانين الطبيعة .

ومن خلال ما أنتجه وما توصل إليه" روسو "في هذا المجال، ومن خلال نزعته الطبيعية بنبي الإشكالية على النحو التالي :إذا اعتبرنا أن التربية الصحيحة هي التربية الطبيعية، وذلك عن طريق عزل الشخص وإقامه للعيش بعيدا عن المدنية، حيث بإمكانه أن ينمو طبيعيا بدون تدخل المجتمع أي من خلال احتكاكه في مراحل عمره الأولى بالطبيعة، والتعرف على حدودها وضرورياتها وهذا كفيل بأن يزوده بخبرة حسية وعقلية تكون له الأساس الذي يقوم عليه بناء فرديته، هذا من جهة، ومن ناحية أخرى إذا قلنا بأن التربية لا تكون إلا داخل وسط أو في إطار اجتماعي، وذلك من خلال الاحتكاك بالمحيط وما يحتويه من أفراد من جهة أخرى، وهذا ما جعل روسو يقع في خلط وبذلك يكون الإشكال العام يتمحور حول التساؤل التالي :أين يكمن دور التربية عند روسو ؟ وهل هي دعوة للعودة إلى الطبيعة أم المدنية الاجتماعية؟ وتتمخض عن هذه الإشكالية المشكلات التالية:

ماهي المؤثرات التي بلورت الفكر التربوي عند روسو ؟

هل الغاية من التربية عند روسو هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش؟

ووفقا لما سبق ذكره فان مقتضيات البحث ومادته جعلتني اتبع الخطة المجسدة في

العناصر الآتية:

مقدمة وثلاثة فصول .فالمقدمة كانت عبارة عن تمهيد، والإحاطة بالموضوع، وطرح

إشكالية

وفيما يخص فصول البحث فقد تضمنت جملة من الأفكار حيث كان الفصل الأول بعنوان الإرهاصات الأولى لفلسفة التربية عند جان جاك روسو، وقد قسمته إلى ثلاث مباحث، المبحث الأول بعنوان بدايات فلسفة التربية عند روسو، والمبحث الثاني بعنوان

الأسباب التي أدت إلى تبلور فكرة التربية عند جان جاك روسو، والمبحث الثالث بعنوان مفهوم فلسفة التربية

أما بالنسبة للفصل الثاني فقد كان بعنوان فلسفة روسو الطبيعية وعلاقتها بالتربية، وقد اندرج ضمنه ثلاث مباحث، فالمبحث الأول بعنوان العوامل التي مهدت لظهور الحركة الطبيعية، في حين المبحث الثاني تحدث عن التربية من المنظور الطبيعي، والمبحث الثالث عالج مفهوم الإنسان عند روسو بين الطبيعة والمجتمع .

أما الفصل الثالث فقد كان تكملة لما قبله من الفصول وقد كان تحت عنوان تطبيقات التربية عند روسو وقد قسمته إلى أربعة مباحث تناول المبحث الأول الآليات الأولى للطفولة وما تقتضيه من عناية، وتضمن المبحث الثاني الأخلاق ودورها في نمو الطفل، والمبحث الثالث بعنوان التربية الذهنية وانعكاساتها، وأخيرا المبحث الرابع الذي تطرقت فيه إلى المراقبة وما تقتضيه من تعليم ديني، لأعرج في نهاية هذا الفصل إلى أهم الانتقادات الموجهة لفلسفته التربوية .

ولقد أنهيت عملي بخاتمة ضمنيتها أهم الاستنتاجات التي استخلصتها من كل فصل محاولة جمعها في إطار ما يوضح طبيعة فلسفة التربية عند جان جاك روسو وما يبرز مكانتها وأهميتها حيث كان لنظريته التأثير الجلي في أهم المنظومات التربوية العالمية.

وكان اختياري لهذا الموضوع لأسباب عدة من بينها: الذاتية والتي تتمثل في الميل الشخصي نحوى البحث في الفكر التربوي عند روسو، وأهم الأفكار التربوية التي نادى بها وذلك من خلال كتابه إميل، والذي يعد كحد فاصل بين التربية في العصور القديمة، والتربية في العصور الحديثة، وأما بالنسبة للأسباب الموضوعية فقد تمثلت في محاولة إلقاء الأضواء على فكر روسو التربوي وذلك من خلال الحركة الطبيعية، واكتشاف الأفكار التربوية التي

وردت في كتاب إميل، والذي عد إنجيل التربية حيث ذاع صيته في أواسط العصر الحديث ولقي رواجاً كبيراً آنذاك.

وأما بالنسبة لأهداف الدراسة فقد تمثلت في: ضبط التربية كمفهوم من خلال تأكيد ضرورتها في الوجود الإنساني، واكتشاف أهم الأسباب التي أدت إلى تبلور الفكر التربوي عند روسو، والدور المهم الذي لعبته الطبيعة في ذلك، إضافة إلى أهم الأفكار التي ضمنها روسو في كتاب إميل.

وفيما يخص المنهج المتبع في هذا البحث ووفقاً لطبيعة الموضوع فقد اعتمدت على المنهج التحليلي كأساس في تحليلي للأفكار التربوية عند روسو كمفهوم التربية عنده.

وطبعاً وكأي بحث لا يخلو من العيوب والتي كانت أسبابها العديدة من الصعوبات التي واجهتني في بحثي هذا، ومن بينها نذكر كثرة الكم المعرفي الذي يحتوي على الأفكار من خلال كيفية عرضها وتوزيعها على الشكل الذي يخدم خطة البحث، وهذا راجع إلى طبيعة الموضوع إضافة إلى قلة المراجع.



الارهاصات الاولى لفلسفة التربية عند جان جاك روسو

تمهيد:

المباحث:

❖ بدايات فلسفة التربية عند روسو

❖ الاسباب التي ادت الى تبلور فكرة

التربية عند جان جاك روسو

❖ مفهوم التربية عند روسو

يعتبر جان جاك روسو من بين الفلاسفة الذين برزوا في عصر الأنوار، حيث كتب في مجالات عديدة والتي من بينها التربية، حيث نجد موضوع التنوير من المواضيع التي أسالت الكثير من الحبر في الفكر الغربي والعربي، ولكن المعروف أن هذه المسألة قد حسمت أمورها في الغرب ووصلت إلى مقاصدها، وتحديدًا في الفكر الفرنسي خلال القرن الثامن عشر بأهم ما تحمله من أفكار فلسفية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية وتربوية، والتي ساهمت في تغيير ذهنية الإنسان الغربي ودفعته إلى إحداث تغيرات جذرية في بيئته وصلت حد الثورة على الأوضاع القائمة آنذاك، حيث ظهرت مفاهيم جديدة عن الإنسان والطبيعة، واتخذ العقل مقياس لقبول الموضوعات أو رفضها، وبهذه الكيفية توصل مفكرو عصر الأنوار إلى ترسيخ جملة من الأفكار والذي من بينهم روسو حيث عالج موضوع التربية، ففيما تمثلت التربية عنده ؟. وما هي المؤثرات التي بلورت هذه الفكرة وجعلتها تسطع في ذلك العصر ؟.

المبحث الأول : بدايات فلسفة التربية عند روسو.

يعتبر روسو* من بين رواد الأدب الفرنسي الذين لاقت أعمالهم إعجابا كبيرا، لتمييز أفكاره وغرابتها في بعض الأحيان، كما أن حياته المضطربة، والتي اختلطت فيها التجارب التعيسة والمليئة بالمغامرات والأخطار¹. وكذلك تلك الظواهر التي مر بها مجتمعه من ظلم واضطهاد وفساد أثرت في روسو أيما تأثير، حيث بدأت تتشكل أفكاره وآرائه عبر هذه المراحل من حياته خلال كفاحه ضد المعاناة وإسهاماته في الكشف عن الكثير من أسرار المجتمع الذي عاش فيه، وتآلم لما فيه من مظاهر الفساد وانعدام العدالة والمساواة. وبالفعل فلقد عرض آرائه في شتى المجالات خاصة منها السياسة والاقتصاد، ومحور التربية الذي قدم فيه الكثير وكان بمثابة المربي². والذي أحدث تغير في فهم الطفولة من خلال كتابه Emile، حيث ركز فيه على عنصر الطبيعة بعيدا عن تأثيرات المجتمع، وكذلك الاستقلالية وهذا من خلال تنشئة الطفل بعيدا عن قيود المجتمع، وزرع فيه اليقظة، وقد اعتبر روسو الطفل يولد حر ويجب أن يبقى على هذا المنوال، وهذه المهمة التي جعل منها روسو كأب وكمربي³. ومنه فقد كان لروسو مكانة ذا شأن كبير في أواسط فلاسفة ومفكري القرن الثامن عشر.

*. جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau (1712 . 1787م) : ولد في مدينة سويسرا من أب فرنسي الأصل وأم سويسرية ، ورث عن أبيه خفة الروح والاندفاع والخيال، وعن أمه سوزان قوة العاطفة وحب الجمال، والتي توفيت في اليوم الثامن من عمره، وقد تعرف خلال حياته في فرنسا على شريكة حياته تريز، ومن أهم مؤلفاته مقالة عن الفنون والعلوم، ومقالة عن أصل عدم المساواة بين الناس، والعقد الاجتماعي، (أنظر: عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية د:ط، دار الثقافة، بيروت، 1971، ص 155 - 160).

¹ - عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1973، ص376.

² - نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004، ص 168.

³ ، Rousseau et éducation » philosophie magazine , di pou been ligne (Enligne) URL : WWW , filmage

والتربية لا شك خير كتب روسو بإجماع الكتاب قدماء ومحدثين، وهو من خير ما كتب في موضوعه، وليس يعيبه ما فيه من نظريات خيالية وأخرى فاسدة، فهو في مجموعته الثمرة الناضجة التي أنتجتها عقل جان جاك، وهو أدق كتبه ملاحظة للواقع وأقربها لمنطق الفلاسفة الوضعيين واسماها غاية وأبعدها أثر، والتربية ليس الأول مما كتبه في هذا الموضوع ولا آخره، فالتربية هي الأساس الذي يجب أن تشاد عليه قواعد الخلق وكانت موضوع بحث كثير من المؤلفين في ذلك العصر.¹ وبهذا فقد أعطى روسو أهمية كبرى للتربية، وقد ظهر هذا من خلال مؤلفاته، وإجماع الكتاب سواء قدماء أو محدثين على مدح ما كتبه روسو في المجال التربوي، رغم ما حملته هذه الكتب من أطروحات مثالية، إلا أنها كانت أقرب إلى الواقع المعيش .

وقد تكونت عبقرية روسو الأدبية وعبقريته التربوية، وليس لنا أن نبحت في حياة روسو عن عوامل مباشرة هيأته لتأليف إميل، صحيح أنه ظل فترة من الزمن مربيا في أسرة ما بلي Mably عام 1739، إلا أنه ما لبث حتى هجر مثل هذه الوظائف التي أخفق فيها، ونضيف إلى هذا أن روسو الذي كان يجب أن يلاحظ الأطفال ويتأملهم، لم يتأمل لسوء الحظ إلا أطفال غيره، ومن أباس ما كتب تلك الصفحة التي في كتاب الاعترافات، يقص لنا فيها كيف كان يطل في غالب الأحيان من النافذة ليشهد خروج الأطفال من المدرسة، وليصغى إلى أحاديثهم، يسترق السمع ويختلس الملاحظات اختلاسا.² ومنه فقد كان روسو يحمل عواطف مليئة بالحب نحو الأطفال، إلا أنه لم يشعر بها نحو أطفاله، وبهذا فقد كان كتاب إميل وليد عبقرية فيلسوف لامع، والذي ألفه بوحى من إلهامه.

وبهذا فقد شغل روسو مكانة سامية في عصره بين زعماء الإصلاح لآرائه القيمة في التربية والاجتماع والتي كان لها أثر كبير على حرية الشعوب، وكان لكتابه شهرة واسعة

¹ محمد حسين هيكل : جان جاك روسو حياته وكتبه، د.ط، د.ت، ص 170.

² عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، ص 377.

النطاق في العالم، فاعتبر كتاب العقد الاجتماعي¹ وجهة نظر المؤرخين السياسيين إنجيل الحرية، وأما كتاب إميل² فاعتبره قادة الفكر التربوي إنجيل التربية، والذي كان له تأثير كبير على الفكر التربوي لاحقاً، وترجم إلى عدة لغات، ويعرض في هذا الكتاب تربية غير قائمة على نمط المجتمع، ولا على التقاليد المدرسية، ولكن على احترام الطفولة ومعرفة حقيقة الإنسان³.

وعلى هذا فإننا نجد أن روسو ومؤلفاته كان لها أثر كبير في حرية الأفراد، وقد نالت نصيبها من الشهرة على نطاق واسع، في ذلك الوقت أي خلال القرن الثامن عشر، وكما أثرت في الفكر التربوي للفلاسفة الذين برزوا بعده.

والتربية في نظره وسيلة يحصل بها الفرد حاجياته حيث يقول: " فنحن نولد ضعافاً فتحوجنا القوة، ومحرومين من كل شيء فتحوجنا المعونة، وبلهاء فيحوجنا الحكم والتقدير، وكل ما ليس لنا يوم نولد ونحتاج إليه حين نكبر إنما نحصله بالتربية والتربية تحصل لنا من الطبيعة ومن الناس ومن الأشياء، فالنمو الداخلي لقوانا وأعضائنا يتأتى من التربية الطبيعة ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تتأتى من تربية الناس، ومحصول تجاربنا الذاتية على الأشياء التي تحيط بنا إنما نحصله من تربية الأشياء"⁴.

ومنه فإن روسو يرجع كل ما يمكن للإنسان أن يعرفه أو يتعلمه إلى التربية، ولا يكون هذا إلا في ثنايا الطبيعة الخصبة بكل ما احتوته من مناظر خلابة، والتي جعلت روسو يهتم بها. وقد تجلّى إلهامه في كتابيه إميل Emile الذي أحدث ثورة شاملة في بنية التصورات والعقائد التربوية في عصره، وفتح الباب على مصراعيه لكل إبداع لاحق في ميدان التربية والتعليم، ثم في كتابه العقد الاجتماعي le control social الذي شكل مهمازاً للثورة

¹. العقد الاجتماعي the social contract: وقد نشرت هذه الرسالة عام 1762 وكانت قيمة رسائله في السياسة والحكومة المدنية. أنظر: كتاب عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 161.

². إميل: Emile: وهي أحسن رسائله التربوية وقد نشرت عام 1762. (أنظر: كتاب محمد التومي الشيباني تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 161).

³. نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 170.

⁴. نقلاً عن: نعيم حبيب جعيني، ص 172.

الفرنسية، لأن الأفكار التي تضمنها أشعلت فتيل الثورة الفرنسية عام 1789، وفي هذا يقول نابليون: "لولاها لما قامت للثورة الفرنسية قائمة". وهنا مافتى كانط يردد قوله المشهور: "إني أعتبر روسو نيوتن عصره لاكتشافه العنصر الأخلاقي بوصفه المكون الرئيسي للطبيعة الإنسانية، مثلما اكتشف نيوتن المبدأ الذي ربط بين جميع قوانين الطبيعة الفيزيائية"¹. وبهذا فقد كان هاذين الكتابين سببا أدى إلى قيام ثورة في فرنسا، ووصف كانط لروسو نيوتن زمانه وهذا دليل على أنه قد أحدث ضجة كبيرة في أوساط الفلاسفة والمفكرين.

وعلى هذا فقد ترك روسو سجلا إنسانيا يتدفق بالأحزان، والمآسي ويفيض بكل معاني القهر وأشكال الهزيمة، وكانت شخصيته نقطة تقاطع لكل التناقضات الإنسانية، حيث تألفت فيها أقدار القوة والضعف وتآزرت في أعماقها العبقريّة والعاطفة والصدق والخداع والعقل والانفعالات، ومع كل هذا كان يستحوذ على بصيرة نافذة وعطف إنساني لا حدود له.²

وبهذا فقد عرف روسو طيلة حياته أشكال القهر عبر مراحل حياته، إلا أن هذا لم يمنعه في تفجير موهبته وعبقريته من خلال مؤلفاته والتي لاقي بعضها الاستحسان، والبعض الآخر قوبل بالرفض من قبل الحكام والفلاسفة الذي عاصروا القرن الثامن عشر.

ومن خلال تجربته التي صقلت موهبته من خلال حسه المرهف وخياله، فقد انعكست في الأفكار التي حملها لنا عبر كتاباته عن الطفل، فما عاناه من ظلم بلا شك كان بمثابة مصدر إلهامه وفي هذا الصدد يقول: "لم أكن املك أي فكرة عن الأشياء في الوقت الذي كنت اعرف فيه كل العواطف والمشاعر، ولم أفكر في شيء تفكيراً بل أحسست كل شيء إحساساً" فكانت هذه الأحاسيس والمشاعر وسيلته في تجاوز الصعوبات والمحن وفي فهم الأشياء.³

¹. علي اسعد وطفة: الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو، مجلة نقد وتنوير، إصدار خاص، 2015، ص3.

². المرجع نفسه، ص3-4.

³. نقلا عن: عبدالله عبد الدائم: التربية عبرا لتاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، ص 376.

ولقد أراد روسو من خلال آرائه ومؤلفاته بيان مدى أهمية العناية بميول الطفل ورغباته لكي يستطيع الطفل تنمية شخصيته ، وتفتح على العالم الخارجي وذلك من خلال معرفة هذه الميول والرغبات والقيام بتشجيع ما هو نافع، وإصلاح ما يجب إصلاحه فقد كان ثائرا على الأساليب القديمة في التربية والتعليم، والعادات السيئة وطرق التدريس، فكان أول من اقترح إدخال النور والهواء إلى المدارس التي كانت مظلمة ورطبة، ولذلك اعتبر بمثابة رائد من رواد الإصلاح التربوي الذي اعتمد على أفكار محدثة وحديثة¹. فكار تريد أن تجعل من الطفل ما يجب أن يكون فليس للطفل أن يكون شيئا آخر غير الذي قدر له أن يكون، فالحياة هي المهنة التي أراد أن يعلمها له، حتى إذا شب قبل أن يكون قاضيا ومحاربا وقصيصا يكون رجلا².

1. نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 168-169

2. Michel Soe tard. « Jean –Jacques Rousseau »(1712-1778), perspectives, paris , UNESCO :Bureau international ,d'éducation ,vol,xxiv,p ,443-456

المبحث الثاني : الأسباب التي أدت إلى تبلور فكرة التربية عند جان جاك روسو .

إن البيئة النفسية والاجتماعية، والثقافية، وكذلك التنشئة الاجتماعية في غالب الأحيان يكون لها تأثيرا بالغا، ليس فقط في صقل شخصية الفرد وأفكاره، وعليه فإن جان جاك روسو لم يشذ عن هذه القاعدة، وكان لهذه العوامل المذكورة آنفا دورا في بلورة فكرة التربية عنده بالفعل فقد كانت لحياة البؤس، والشقاء والتشرد التي عان منها روسو في طفولته، وفي مراهقته، والفترات التي عاشها طيلة حياته من جهة، ومن جهة أخرى ما ارتبط بهذه الحياة من علاقات نشأت عند روسو في اتصاله مع الطبيعة والبيئة الاجتماعية التي سادت فيها الطبقية، وهنا نقصد الظروف التي عاشها روسو باعتباره ينتمي إلى الطبقة الفقيرة البائسة، وبالإضافة إلى هذه الظروف نجد أن العوامل النفسية كقوة عاطفته ورقة شعوره وعدم تقبله القيم السائدة خاصة منها ما تعلق بالدين، والتي كان لها أثرا في إنتاجه الفكري، فهذه السمات التي ميزت شخصية روسو انعكست في رسائله وكتبه.¹

إضافة إلى ما ذكرناه من عوامل اجتماعية ونفسية، وما اتصل بالطبيعة، فقد تأثر روسو ببعض المفكرين من خلال أفكارهم وكتبهم أمثال أفلاطون " ومن الكتب التي يمكن أن يجد الباحث صدى لتأثيرها في كتابات روسو ويعترف هو نفسه بتأثيرها في أفكاره جمهورية أفلاطون²، والتي قال عنها بأنها أحسن كتاب في التربية، ورسائل مونتاني³ في التربية .

أما فيما يخص البيئة الفكرية التي سادت خاصة فيما يتعلق بحركة التنوير، فقد كانت من العوامل التي ساعدت على تطور الأفكار بصفة عامة، وقد اتصل روسو بمفكري هاته الفترة وقرأ لهم، وشجعه على الكتابة والدفع به إلى التأليف في عدة مجالات، من بينها

¹ عمر محمد التومي الشيباني :تطور النظريات والأفكار التربوية، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1971، ص159.

² أفلاطون: PLATO: (427. 347م) فلسفته مشروحة في شكل حوارات، تدور على نظرية المعرفة ونظرية الوجود وعليها يؤسس أفلاطون الأخلاق والسياسة. (انظر:مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، د.ط، 2007، ص77).

³ مونتاني: Michel de Montaigne: أخلاقي فرنسي شهير وكاتب ممتاز ولد في قصر مونتاني في 28 فبراير 1533، وينحدر أبوه من أسرة من التجار في بوردو وأما أمه فتحد من أسرة يهودية .(انظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج:2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، ص487).

التربية التي لها ارتباط وثيق بما ذكرناه آنفا من عوامل.¹ إلا أن هذه البيئة الفكرية "عصر الأنوار" ساهمت في تفجير طاقاته الفكرية ليس فقط في مجال التربية وحدها بل على مستوى الحياة الاجتماعية والسياسية، وعليه فإن روسو لعب دور المصلح الاجتماعي الذي لا يتقبل الظواهر والقيم التي سادت في مجتمعه، والتي رأى أنها تقيد الإنسان في نفسه وفي فكره، فاتصاله مع الطبيعة وكذلك الحياة التي عاشها، والبيئة الفكرية التي سادت في عصره دفعته إلى أن يكون ثائرا، لامتقبل وخاضع لهذه القيود والقيم.

ولذلك فقد اعتبر أن السبيل إلى التغير يتمثل في عامل مهم بالنسبة له، والذي ركز عليه وهو إيجاد نمط تربوي جديد، وهذا ما تعرض له في كتابه إميل الذي انتقد فيه التقاليد التي سادت، حيث كانت لآرائه تأثير كبير على التربية.² وهكذا استطاع روسو أن يقدم فكره التربوي رغم أنه عاش تأثير حياة صعبة، وقد بلوره بعيدا عن النظم التربوية التقليدية والقديمة، وكل هذا من خلال كتابه الذي شق للإنسانية آمالا جديدة في كيفية تربية الطفل.

¹. عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 160

². أحمد علي الحاج محمد: فلسفة التربية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002، ص 125.

المبحث الثالث : مفهوم التربية عند روسو.

التربية: Education وهي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمارين حتى تبلغ كمالها شيئاً فشيئاً، تقول : ربيت الولد، إذ قويت ملكاته، ونميت قدراته وهذبت سلوكه، حتى يصبح صالحاً للحياة في بيئة معينة ، ونقول تربي الرجل إذا أحكمته التجارب، ونشأ نفسه بنفسه، ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمي شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية والخلقية حتى يصبح قادراً على مؤالفة الطبيعة، يجاوز ذاته، ويعمل على إسعاد نفسه.¹ وعليه تكون التربية عن طريق تنمية قدرات الطفل وذلك بشكل صحيح مما يساعده على تحقيق التكامل في النواحي الثلاث وهي الجسم والعقل والخلق وبهذا يكون قادر للعيش في أي بيئة .

وقد قالت العرب : ربا الشيء ربوا وربوا : نما وزاد، قال الله تعالى عن الأرض " فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت " أي زادت وانتفخت بسبب ما يتداخلها من الماء والنبات، ويقولون : ربا المال: زاد، ويقولون : ربي فلانا: غذاه ونشأه، والذي يظهر من معنى النمو هو تنمية الجانب الذي توجه إليه، فالتربية العقلية تهدف إلى تنمية القدرات العقلية، وأما المعنى الثاني، فهو التدرج فالتربية جهود تراكمية، والزمن عامل مهم في بلوغ التربية غايتها، وهذا واضح في قولهم تربي، وتنشأ، وعليه فالإنماء والتدرج أهم قانونيين في التربية.²

وبهذا فالتربية هي عملية نمو وزيادة وهي نتيجة تراكم مجموعة من الجهود، والتي تقدم للشخص بشكل منظم وليس دفعة واحدة.

ويرى بعض الفلاسفة والباحثين في الشأن التربوي، أن التربية لا تعدوا أن تكون مجرد تقديم الفرص للنمو الطبيعي، وهي ليست شيئاً يقم على الأطفال والشباب إقحاماً قسرياً من الخارج، وإنما هي نمو القدرات الفطرية الكائنة في بني الإنسان عند الميلاد، ونحن نرى أن

¹. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د.ط، 1982، ص 266.

². عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، دار القلم، دمشق، د.ط، 2011، ص 11.

إتاحة الظروف والفرص التي تسمح لملاكات الإنسان ومواهبه وقدراته بالانفتاح والنمو، أمر مطلوب حقا على نحو عام، فالنضج المأمول لأي فرد، وأي أمة لا يمكن أن يتم خارج دوائر الفعل والممارسة¹. وعليه فإن التربية لا تكون إجبارية وإنما هي العمل على تنمية قدرات الفرد والتي تولد معه، بمعنى فطرية، ولكنها تحتاج إلى صقلها من طرف المربي، وذلك بأن يتيح لهذا الفرد بأن يحقق مواهبه لبلوغه الهدف الذي يصبوا إليه .

وقد كانت التربية قديما تتم داخل العائلة لبساطة الحياة فكانت هي المدرسة الأولى لتربية الناشئة على أساليب الحياة المختلفة والخبرات، وكيفية تحصيل الرزق وتسيير شؤون الحياة اليومية المختلفة والتكيف معها، وكانت تتم بصورة عفوية غير مقصودة عن طريق التقليد والمحاكاة، ومع تكاثر الأسر ظهرت القبائل والعشائر التي ساعدت على تربية أطفالها وخاصة في الجوانب الروحية المتعلقة بالعقائد والطقوس، وكذلك في شؤون الحياة اليومية التي أصبحت أكثر تعقيدا². وعليه فإن التربية فيما مضى كانت تتم داخل الأسرة والتي اعتبرت المدرسة الأولى لتنشئة الفرد، وهذه الأخيرة هي التي تقوم بتعليمه كيفية الحصول على معيشته، وكيف يسير حياته، وقد ركزت في تربيته على الجانب الديني وما حمله من طقوس وعبادة.

وتطلق التربية على كل عملية تؤثر على الطفل فهو خاضع باستمرار منذ ولادته لعمليات كثيرة ومختلفة لتنقله من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، من خلال عمليات التفاعل المختلفة التي تقود الوليد البشري للتكيف مع متطلبات الحياة، أو بمعنى آخر إعطاء الكائن الحي صفته الاجتماعية والإنسانية فهي تربطه بمجتمع معين له خصائصه ومنجزاته الثقافية، ويبقى هذا التأثير مستمرا خلال حياة الإنسان لأن التربية هي عملية مستمرة من المهد إلى اللحد، إنها الحياة نفسها بسلبياتها وإيجابياتها³. من خلال هذا فإن التربية هي

¹. عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، ص 13-14 .

². نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 41.

³. المرجع نفسه، ص 42.

عبارة عن عملية تنقل أو تؤثر في الطفل وتجعله يتكيف مع متطلبات الحياة من خلال إعطائه فرصة لاكتشاف صفته الإنسانية والاجتماعية .

كما أن مفهوم التربية في ظل عصر النهضة أصبح ينظر إليها أنها عملية تفتح لشخصية الفرد، وتحرير لعقله، وتهذيب لعواطفه وأخلاقه، وتحقيق لكفاءته العملية في الحياة هذا بالنسبة للفرد، وأما بالنسبة للحياة الثقافية والاجتماعية فقد أصبحت التربية ينظر إليها على أنها عملية إحياء لتراث الأقدمين وإصلاح لحاضر المجتمع، وواقع حياته وإعداد لمستقبل أفضل، وقد ارتبط هذا المفهوم الجديد للتربية في هذا العصر بظهور عدة عناصر جديدة في التربية كانت مفقودة في العصور التي مضت¹. وبهذا فان مفهوم التربية في ظل هذا العصر قد ركزت من الناحية الفردية على ترك الفرد للتفتح على شخصيته، وأن يحرر عقله من كل سلطة، وأما من الناحية الاجتماعية، فهي عبارة عن إحياء للقديم في قالب جديد، وإصلاح للحاضر المعاش.

وقد انتقل مفهوم التربية إلى فلاسفة القرن السابع عشر ونذكر على سبيل المثال فرانسيس بيكون حيث شهد هذا العصر تجديد في مفهوم التربية، ومن مظاهر التجديد الذي أحدثه بيكون في مفهوم التربية وأهدافها، أنه كان يرى أن التربية يجب أن تكون وسيلة لتحقيق أغراض عملية نفعية، بدلا من أن تكون وسيلة لتكديس المعلومات وحشو ذهن التلميذ بالنظريات وبالمعلومات النظرية التي لا صلة لها بالبيئة المحيطة به ولا بالواقع الذي يعيش فيه والغرض الذي يجب أن تسعى التربية لتحقيقه هو تمكن الإنسان من فهم أسرار الطبيعة². ومنه فان بيكون يرى في التربية مجرد وسيلة لتحقيق المنفعة، بمعنى كل ما يعود على التلميذ بفائدة، وليس أن تقوم بحشو دماغه بالمعلومات التي لا فائدة منها، والتي ليس لها علاقة بالواقع الذي يعيش فيه .

¹. عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 76.

². المرجع نفسه، ص 117 . 118.

أما إذا ذهبنا إلى جون لوك فقد آمن بأن الإنسان يولد وهو مزود بعدة ملكات لها استعداد للقيام بكل شيء إذا ما هذبت، والوسيلة الوحيدة لتهديبها وجعلها تؤتي ثمارها هو التدريب وتكوين العادات الطيبة، فالتربية هي عملية تدريب وتهذيب للاستعدادات التي يملكها الإنسان، وقد قسمها إلى التربية البدنية، والتربية العقلية، والتربية الخلقية، ولكن بالرغم من أن مفهوم التربية عنده يشمل هذه النواحي الثلاث كلها، فإنه يعطي أهمية أكبر للناحية الأخلاقية¹. وعليه فالتربية عند جون لوك تمثلت في تهذيب الملكات والاستعدادات والتي رأى بأنها تولد مع الإنسان، ورأى بأن التربية على ثلاث شملت الأولى البدن، والثانية العقل، والثالثة الأخلاق، غير أن هذه الأخيرة هي التي أعطاها أهمية كبرى .

أما إذا ذهبنا إلى الفلاسفة القرن الثامن عشر، نقدم تعريف روسو هذا الأخير باعتباره موضوع بحثنا، فهو يعرفها بأنها عادة، واعتبر أن خير عادة أن لا يكون للطفل عادة، بل يتم تشكيله وفق قوانين الطبيعة، فالانفعالات الفطرية والغرائز الطبيعية هي أصدق أساس للعمل من التفكير والحذر والخبرة الناشئة عن الارتباط بالآخرين، وأن المدن ما هي إلا مقابر للجنس البشري من الناحيتين الطبيعية والخلقية².

وهذا معناه أن روسو يدعوا إلى تشكيل نمو الطفل وفقا لقوانين الطبيعة، وذلك بأن يترك في أحضان الطبيعة فهي كفيلة بصقل غرائزه وانفعالاته .

وهو يؤمن بضرورة التربية للإنسان، لأنها هي التي تساعد على تفتح شخصيته وصلقلها وتشكيلها بالشكل المرغوب فيه، والتربية التي تسير وفقا لقوانين الطبيعة تحترم ميول الطفل وغرائزه الفطرية، ونزواته الأولية ورغباته المعقولة، وتعمل على تحرير قواهم بدلا من كبتها وإذلالها وإخضاعها للنظم والتقاليد الاجتماعية، وتعمل أيضا على تعويد الطفل على حياة البساطة والتقشف والصبر والاعتدال من كل شيء والاعتماد على النفس وتحمل الألم، وفي الوقت نفسه تمتع عن تذليله وتعويده على الحصول على كل شيء³. وعليه يرى روسو

¹. عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 136.

². نعيم حبيب جعيني : الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 167.

³. عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 168.

بأن التربية في الطبيعة تساعد الطفل على صقل شخصيته لكي تصبح قوية قادرة على تحمل الآلام، وأما بالنسبة لميوله ورغباته فهي تعمل على تحريرها بدلا من إخضاعها للنظم الاجتماعية، وكذلك تعمل على جعل الطفل يتعود على حياة بسيطة، ويعتمد على نفسه في كل شيء.

وقد اعتبر روسو أن دراستنا الحققة هي دراسة البيئة الإنسانية، وبهذا تكون التربية الحققة بالممارسة أكثر مما هي بالتلقين، فالإنسان يبدأ التعلم حين يبدأ الحياة، فتربيتنا تبدأ معنا، ومعلمنا الأول هو حاضنتنا، وكان الأقدمون يعنون بالتربية التغذية، ولئن قال قائلون أن القابلة تخرج الطفل إلى النور، فترضعه الحاضنة ويؤدبه المؤدب ويتقفه معلم المدرسة فهذا التعريف ساء استعماله، وينبغي لخير الطفل أن يتولى قيادته مرشد واحد¹. ومنه فقد اعتبر روسو أن التربية لا تكون إلا بترك الطفل يمارس كل ما يمكن أن يساعده على التعلم بمفرده، لا أن يلقي من طرف مربيه، وتربيته تبدأ معه، أي منذ ولادته، من خلال معلمه الأول، لأن روسو رفض أن يكون لديه أكثر من مرشد.

ويرى روسو أن التربية الدنيوية ليست تربية بمعنى الكلمة لأنها تهدف إلى غايتين متناقضتين، فيفوتها إدراكهما جميعا، ولا تغلح إلا في أن تغرس الرياء في الناس، فهم يظهرون دائما أنهم يعملون لسواهم، في حين أنهم لا يعملون إلا لأنفسهم، وتلك أمور معروفة للجميع، فلا ضرر منها على أحد وإنما هي جهد ضائع². وعليه فإن روسو يرى في التربية الدنيوية، تربية من أجل المصالح، حيث تقوم على غرس عادات في الشخص تبينه في الظاهر شيء، وفي باطنه شيء آخر، فهي تدفعه إلى العمل من أجل نفسه، لا من أجل الغير.

¹. جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، تر، نظمي لوقا، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 32.

². المصدر نفسه، ص 31.

الفصل الثاني



فلسفة روسو الطبيعية وعلاقتها بالتربية

المباحث:

❖ العوامل التي مهدت لظهور

الحركة الطبيعية عند روسو

❖ التربية من المنظور الطبيعي

عند روسو

❖ مفهوم الإنسان عند روسو

من بين الأفكار التي لا يمكن تجاهلها، ونحن بصدد تحليل أهم خصائص القرن الثامن عشر، فكرة الطبيعة وهي في أساسها مكملة لفكرة العقل إلى درجة يستحيل معها الفصل بينهما، وتمثل الطبيعة العالم الخارجي الذي يعيش فيه، الإنسان مع غيره من الكائنات، كما تعني مجموع الأشياء المحسوسة وهي مرتبطة بعضها ببعض مشكلة الكون أو العالم المادي الذي يسير وفق قوانين منظمة ومتناسقة، وما دام الأمر كذلك فالعقل البشري قادر على دراستها دراسة علمية وفهم قوانينها العامة، ويعد روسو زعيماً للنزعة الطبيعية في الفلسفة والفكر بلا منازع: حيث انطلق في منظومته التربوية من المبدأ الذي يقول بأن الطبيعة الإنسانية خيرة، وعلى هذا الأساس يجب أن تنطلق التربية نحو الميول الطبيعية للطفل لكي يكون ابن الطبيعة، وعليه هل يمكن القول بأن شعار روسو هو العودة إلى الطبيعة وتمجيده لحالة الأنا، قبل الاجتماعية والبدائية، يعني أن التربية الطبيعية تدعوا إلى الإنسان الطبيعي بمعنى الهمجي أم الإنسان النقي؟.

المبحث الأول : العوامل التي مهدت لظهور الحركة الطبيعية .

حتى إذا ما انتقلنا إلى القرن الثامن عشر نجد بعض التطورات الفكرية والتربوية، قد حدثت في البلدان الأوروبية وعلى رأسها فرنسا التي انتقلت إليها الزعامة الفكرية في هذا القرن، وقد تبلور التطور الفكري العام عن ظهور حركة التنوير التي سادت فرنسا وألمانيا في هذا القرن، أما التطورات التربوية فقد تبلورت عن ظهور الحركة أو النزعة الطبيعية في التربية، بزعامة جان جاك روسو في النصف الثاني من هذا القرن¹. وقد أدى هذا التطور إلى بلورة الفكر التربوي الحديث في حلة جديدة، خاصة بعد أن طرح روسو أفكاره التربوية الجريئة، والتي غيرت الكثير من أوضاع التربية والتعليم لاسيما المتعلقة منها بالطفل، وقد تمثلت العوامل التي أدت إلى ظهور الحركة الطبيعية في :

أولاً : العوامل السياسية : حيث كان الهدف منها بناء مجتمع مثالي من خلال التركيز على العواطف بوصفها أحسن تعبير وأصدق عن طبيعة الإنسان، هادفة إلى تحسين حال الجماهير الشعبية من خلال موقفها ضد الظلم الاجتماعي الذي ساد حياة القرن الثامن عشر، والدعوة إلى الإيمان بالإنسان وخلق مثل عليا جديدة للحياة وبث روح جديدة في المجتمع وتحقيق العدالة، وإيجاد قواعد جديدة لطبيعة الإنسان والدين معا.² بمعنى كانت تطمح إلى بناء مجتمع يسوده الأمان بعيدا عن الاستبداد والاستعباد، وتحقيق العدالة بين أفرادهم.

وقد حدث سوء في الأحوال السياسية والروحية والاقتصادية والاجتماعية، التي كانت سائدة في أوروبا بما فيها فرنسا منذ عدة قرون، واستمرت حتى القرن الثامن عشر، فمن الناحية السياسية كانت أوروبا تعيش تحت ظل حكم مطلق مستبد، يجمع أربابه في أيديهم جميع السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، ويسخرون لخدمتهم وخدمة الطبقة

¹. عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 147.

². نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 165.

الأرستقراطية التي كانت تساندهم الغالبية العظمى من الشعب ولا يألون جهداً في كبت الحريات السياسية والفكرية والدينية¹. وبهذا فقد عرفت شعوب أوروبا ظروفًا سياسية صعبة، ونخص بالذكر فرنسا، حيث ظهرت فيها عدة سلطات بزغت من أجل كبت حرية الفرد، سواء في الجانب السياسي أو الفكري أو الديني. وأصدق مثل يمكن أن يضرب لهذا الحكم المطلق المستبد هو حكم لويس الرابع عشر Louis XIV في فرنسا في القرن الثامن عشر الذي بلغ قمة الدكتاتورية والاستبداد، وبهذا فقد كان المجتمع الأوروبي يرزح تحت أغلال الطبقة والبؤس والفقر ويسوده التحلل والإباحية والفساد، فبينما نجد الطبقة الأرستقراطية* تعيش في عالم خيالي من البذخ والترف فإننا نجد السواد الأعظم من الشعب يعيش في ذل ومهانة وفقر، ولم يغير من هذا الوضع ما حدث من تطور في القرن السابع عشر، لأنه كان مقصوراً في الغالب على تحسين الطبقة الأرستقراطية². وبهذا فقد كان المجتمع الأوروبي يعيش في ظل الطبقة بين أفراد شعبه، فصار القوي منهم يأخذ حق الضعيف، فبينما يعيش هو في ترف وغنى، يكون الآخر في أسوأ حالة من الذل والفقر.

ثانياً: العوامل الدينية : أما بالنسبة للدين فقد تمثلت في ظهور الحركات الدينية المتحررة التي ظهرت في القرن السابع عشر كرد فعل ضد سيطرة رجال الكنيسة، وضد الطقوس الدينية الشكلية، وضد التحلل الأخلاقي الذي كان سائداً في ذلك العصر، وضد الظلم والفساد والتعصب في أشكاله المختلفة، وضد الحروب الدينية³. وقد كان سبب ظهور هذه الحركات للتخلص من السيطرة التي كان يمارسها رجال الدين، وضد ما يسمى بالطقوس والتي لم تكن دينية بحتة بل شكلية لا غير، والتي جعلتهم يقعون في أعمال منحطة أدت إلى

¹ عمر محمد التومي الشيباني : تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 150.

* - الطبقة الأرستقراطية: Aristocratie: الأرستقراطية حكومة طبقة اجتماعية معينة تمثل أقلية تمتاز على غيرها من الطبقات بثقافتها أو فضائلها أو حقها الوراثي. (انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 62).

² - عمر محمد التومي الشيباني : تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 151. 150.

³ . المرجع نفسه، ص 148.

فقدانهم للأخلاق السامية، ومن أبرز هذه الحركات الدينية نجد حركة التطهير أو التطهر puritanisme التي ظهرت في بريطانيا في القرن السابع عشر والتي كان لفلسفتها الأخلاقية أكبر الأثر في تشكيل أفكار لوك* التربوية والسياسية وأفكار غيره من الأخلاقيين في بريطانيا، ومذهب التقوى piétisme الذي تأسس في ألمانيا في منتصف القرن السابع عشر على يد فيليب يعقوب سبنر Philip Jacob Spener، الذي كان قسيساً، ومذهب الجانسيزم jansénisme الذي ظهر في فرنسا في القرن السابع في فترة كان الخلاف فيها بين اليسوعيين Jésuites المدرسين وبين أتباع القديس أوجستين** St. Augustine¹. وبهذا فقد شهد القرن السابع عشر بزوغ عدة حركات دينية، والتي كانت إحدى العوامل التي أدت إلى ظهور الحركة الطبيعية.

فهذه الحركات الدينية الإصلاحية الثلاث قد كان لها تأثير كبير في التفكير الديني والتربوي والسياسي في القرن السابع عشر والثامن عشر معاً، وهي وإن اختلفت في بعض مبادئها وفي منبتها، وفي ارتباطها بالكنيسة الكاثوليكية، وفي درجة تشعبها بالتفكير الفلسفي، فإنها تتفق إلى حد كبير في كثير من المبادئ التحررية التي مهدت لحركة التنوير، والحركة الطبيعية في القرن الثامن عشر، وبهذه الأفكار التحررية استطاعت هذه الحركات الدينية أن تخلق رأياً عاماً يتطلع على الحرية، والسلام والإصلاح الشامل، ومما زاد تأثيرها هو صبغها لمبادئها بالصبغة الدينية². وبهذا فقد كان لهذه الحركات التحررية تأثير بالغ في العديد من الجوانب وتخص بالذكر التفكير في كل من الدين والتربية والسياسة، والذي يشمل القرن

* جون لوك: Jon Locke: فيلسوف تجريبي انجليزي ولد في 29 اغسطس سنة 1632 في رنجتون، تعلم في مدرسة وستمنستر، ثم في كلية كنيسة المسيح في اكسفورد، وفي سنة 1667 أصبح طبيباً خاصاً لأسرة أنتوني اشلي وقد نجح في إجراء عملية جراحية لا نتولي اشلي في سنة 1668. (انظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ص 373).

** القديس أوجستين St Augustine: (354-440) ويعرف باسم اورليوس اوغسطينوس وباغسطين الأيوبي، ولد في طاجسطا من أعمال نوميديا (سوق أهراس بالجزائر على الحدود التونسية)، كانت أمه مسيحية، أما أبوه فكان وثنيا وتلقى وافية في البيان. (انظر: فؤاد كامل، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، لبنان، د.ط، د.ت، ص 88).

¹ عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 148.

² - المرجع نفسه، ص 149.

السابع عشر والثامن عشر وما شهداه هذان القرنين من ثورات فكرية وحروب دينية ضد سلطة الكنسية.

والدين في نظر روسو هو الدين الطبيعي الذي يضم أخلاق الدين المسيحي والتخلص من عناصر ما فوق الطبيعة فيه، فالطبيعة تؤمن بالدين وتعتبره جزءا هاما في المجتمع البشري، ومن الخبرة الإنسانية، بعكس حركة التنوير التي كانت ملحدة¹. و من خلال هذا فقد اعتبر روسو أن الدين شيء مقدس يجب أن ينطوي على أخلاق الدين المسيحي والإيمان به، واعتباره جزء هام في حياة الفرد لارتباطه بالخبرة الموجودة لديه .

ثالثا : النزعة الواقعية : والتي كان لها تأثير بالغ في تفكير القرن الثامن عشر، حيث قويت شوكتها في القرن السابع عشر، وفي النهضة العلمية التي نشأت عنها، وقد كان من أقطابها كوبرنيكس، وجاليلو، ونيوتن، وبويل، وغيرهم من العلماء ولقد كان من نتيجة هذه النزعة الواقعية والنهضة العلمية، التي نشأت عنها هو الرفع من قيمة العقل، ومن قيمة الإنسان وقدرته على اكتشاف الحقيقة، إضافة إلى العلوم الطبيعية، والاستقرائية التجريبية في كشف الحقيقة العلمية الواقعية². وبهذا فقد تمخض عن هذه النزعة نهضة علمية تدعو إلى الإعلاء من شأن العقل، وتبرز ما للإنسان من أهمية وقدرة تمكنه من أن يكتشف الحقيقة، وكما أولت أهميتها للتجربة ودورها في البحث عن الحقيقة الواقعية .

رابعا: الحركات الفلسفية :

وقد ظهرت الحركات الفلسفية الثلاث في القرن السابع عشر والتي أعلت إحداها من قيمة الحواس وثانيتها من قيمة العقل، وثالثهما من قيمة الخبرة كمصدر للمعرفة الإنسانية، ذلك كله على حساب مصدر الدين والعقيدة، وقد كان من بين قادة الحركة الفلسفية الأولى

¹ . نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 166.

² . عمر محمد تومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 149-150.

الفيلسوف الإنجليزي هوبز، وقد كان من أبرز أنصار الحركة الثانية الفيلسوف الفرنسي ديكارت وأما الحركة الثالثة والتي حاولت التوفيق بين وجهتي نظر الجانبين وأتت بمذهب وسط في نظرية المعرفة، هو الفيلسوف الإنجليزي جون لوك الذي أكد قيمة كل من الحواس والتعقل والتفكير الداخلي في اكتساب المعرفة، وقال بأنها تأتي عن طريق الخبرة أو التجربة¹. وبهذا يكون ظهور هذه الحركات الثلاثة من الدوافع التي أدت لظهور الحركة الطبيعية .

خامسا : ظهور حركة التنوير الفكري:

وقد تمخضت جهود هؤلاء المفكرين المتحررين في أوائل القرن الثامن عشر عن ظهور حركة فكرية جديدة تسمى حركة التنوير the mouvement of enlightenment والتي مهدت لظهور الحركة الطبيعية، واتفق رجالها حول عدة أفكار من بينها الرفع من شأن العقل وتحكيمه في كل الأمور بما في ذلك الأمور الدينية، ورفض كل سلطة دينية أو سياسية لا تستطيع أن تجد لها ما يبررها في عقل الفرد المفكر، والثورة ضد سلطة الكنيسة، وضد الظلم والفساد والاستبداد في جميع المجالات وضد الخرافات والنفاق الأخلاقي والجهل في التفكير، والإيمان بالتطور والتقدم والتحرر الفكري، إضافة إلى مبدأ حكم العقل². وعلى هذا يتبين بأن فكرة العقل اعتبرت هي المحور الأساسي لفلسفة الأنوار لاعتقاد أصحابها الراسخ بأن العقل وحده كفيل بحل كل مشاكل الإنسان، فالعقل هو نقطة النقاء ومركز انبعاث الأفكار في هذا القرن بكل ما حمله من تطلعات وانجازات وكما يعد العقل هو القاسم المشترك بين البشر مهما اختلفت عصورهم .

لكن بالرغم مما لهذه الحركة الفكرية من مزايا في تحرير الفكر من سيطرة التقاليد والخرافات، وفي التمهيد لحركات إصلاحية أكثر واقعية واتصالات بحاجات عامة الشعب،

¹ عمر محمد تومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 150.

² المرجع نفسه، ص 151 - 152.

فإنها قد أخذت عليها عدة مآخذ ووجهت إليها انتقادات أهمها أنها حركة ارسقراطية تهدف على إنشاء ارسقراطية عقلية على أنقاض الأسرة والمنصب والكنيسة، واحتقارها للطبقات الدنيا لأنها غير جديرة بحكم العقل، كما أنهم لم يفرقوا في محاربتهم للدين بين الدين في سموه وبساطته، وبين الدين المتمثل في تصرفات الكنيسة ورجال الدين، وقد دعت هذه العيوب إلى انفصال بعض مفكري القرن الثامن عشر عن هذه الحركة، والمناداة بحركة أو مذهب جديد¹.

وبهذا نرى أن دعاة الأنوار خاصة أن في فرنسا قد بالغوا في تمجيد العقل والعلم وفصلهما عن الدين وكل مظاهر الدين باعتبار أن مسألة المعتقد لا تعدو أن تكون إلا مسألة شخصية، ومن ثم فهي بعيدة عن الحياة الاجتماعية والسياسية، وهي من أكبر الأخطاء التي وقع فيها الغرب بسبب الممارسات الخاطئة للكنيسة ومحاربة هذه الأخيرة للعلم والعلماء باسم الدين.

¹. عمر محمد تومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 152 - 153 .

المبحث الثاني : التربية من المنظور الطبيعي عند روسو

ظهرت فلسفة التربية الطبيعية على النقيض من الفلسفات السابقة التي غالت في تقديس العقل، وألغت طفولة الإنسان، وجوانبه الوجدانية والعاطفية، وأهملت حرية الإنسان وحقوقه واعتبرت الإنسان شرير عدواني، والتربية أداة كبح الشر وإعلاء الغرائز، وعلى النقيض من ذلك جاءت فلسفة التربية الطبيعية لتتطرق من فكرة العودة للطبيعة، فهي خير بيئة يمكن أن يعيش فيها مستقلاً، ذلك أن كل ما هو طبيعي يحمل صفة النقاء والسلامة، لأن الطبيعة تخضع لقوانين ثابتة وتوازن داخلي، بسبب الظواهر الطبيعية، وتحافظ ذاتياً على نفسها دوماً¹.

ففي إطار الحديث عن التربية الطبيعية فقد أعلى روسو من شأن الطبيعة البشرية من خلال الإيمان بخيرتها والدعوة إلى الحياة الطبيعية، والحث من شأن الفلسفات التي سبقتها، والتي ألغت الإيمان بالعواطف والمشاعر الإنسانية، واحترام طبيعة وميول الطفل وحاجات الحاضرة، وما يتماشى مع قوانين الطبيعة بصورة عامة .

والطبيعة الإنسانية تبعاً لذلك تتبع قوانين الطبيعة، والأجدى أن يترك الفرد للطبيعة وقوانينها، وأن تهئ التربية فرص النمو الطبيعي للإنسان دون تدخل وقسر لحريته من قبل الكبار، وأي اختلال لنمو الإنسان، وأي فساد يظهر على الناس، إنما هو من قبل المجتمع وتدخله في قوانين الطبيعة الخيرية².

ومنه فإن الإنسان الطبيعي حر يعتمد على نفسه، فهو وحدة كاملة في حد ذاته، والذي يتعامل معه التربية الطبيعية، إنما تسيّره وتحكمه قوانين الطبيعة .

¹. أحمد علي الحاج محمد: فلسفة التربية، ص 125.

². المرجع نفسه، ص 126.

لا يختلف روسو في رؤيته للحالة الطبيعية عن رؤيته للإنسان الطبيعي فهو يراها أنها مجرد افتراض علمي لا يكثرث بالحقيقة التاريخية، ولكنه في نفس الوقت أكثر نفعا من وقائع التاريخ، حيث يقول: "انه يجب ألا نعد البحوث التي قد نخوض فيها حول هذا الموضوع حقائق تاريخية، ولكن قياسات افتراضية معلقة على شروط من شأنها أن توضح طبيعة الأشياء أكثر مما تهدف إلى أصلها الحقيقي"¹.

حيث نجد أن روسو يقوم على الإعلاء من شأن الطبيعة ويدعوا إلى الحياة الطبيعية والإيمان بالعواطف والمشاعر الإنسانية، وبهذا لم تختلف نظريته للحالة الطبيعية والإنسان الطبيعي، واعتبر الطبيعة هي الأصل الذي يعود إليه الإنسان .

وعلى ذلك كان روسو يرى أن الحالة الطبيعية الأولى، كانت حالة يسودها الخير والسعادة والفضيلة، وأن المظاهر التي تعاكسها من شر وظلم وتعسف وكذب ورياء ما هي إلا صفات الحالة السياسية أو الحضارية، وأن هذه الحقائق ليست هي التي اشتملت عليها الكتب والدراسات، وإنما هي حقائق الطبيعة ذاتها، حيث يقول: "فيا أيها الإنسان من أي قطر كنت، وأيأ كانت آراؤك ومذاهبك، أصغ سمعا، هذا تاريخك كما توهمت أني أقرأه لا في كتب أمثالك من الناس الذين هم كاذبون، بل في الطبيعة التي لا تكذب أبدا"². وعلى هذا فان روسو يعتبر بان كل ما تتضمنه التربية في الحالة الطبيعية هو خير ، وما عدا ذلك فهو ينتمي لما يعرف بالسياسة أو الحضارة ، وهذا على حد تعبيره أن الطبيعة هي الحقيقة الوحيدة في هذا الكون التي يجب أن يؤمن بها الإنسان، لأن الحياة الإنسانية جزء منها .

فالحالة الطبيعية عندئذ التي تتكلم عنها الطبيعة ذاتها بعيدة عن المظاهر السياسية ، والاجتماعية الناشئة عن العلاقات الإنسانية التي تتكون بعد المرحلة الطبيعية، ولاسيما الاستبداد الذي يتسائل روسو عن معناه ومفهومه، ويجب أليس معناه الصحيح أن يسود

¹. إسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت، ص 121 . 122.

². المرجع نفسه، ص 22.

بعضهم بعضا بعنف.¹ حيث يعتبر روسو أن الطبيعة خيرة بذاتها ولا يتدخل في وجودها أي مظهر من مظاهر التنشئة الناتجة على أي علاقة، وأن العيش أو الاستقرار خارج هذه الطبيعة قد يؤدي إلى نتائج وخيمة تنشأ بين الأفراد. إن هذه الوضعية التي توجد عليها الحياة في الحالة الطبيعية ترفع الاستبداد والاستغلال بين الناس فيها، لأنهم لم يدركوا معناه في تلك المرحلة، ولأنهم لم يكونوا تابعين بعضهم لبعض لأن الاستبداد والاستعباد ناشئ من تبعية الناس بعضهم لبعض، ومن الحاجات المتبادلة التي تجمعهم، فإنه من المستحيل استعباد إنسان دون أن تضعه قبل ذلك في حال لا يستطيع فيها الاستغناء عن غيره، وهذا الوضع إذ لم يكن موجودا في حال الطبيعة، فإن كل إنسان كان فيها طليقا من النير، وكانت شريعة الأقوى باطلة². حيث أنه في تلك المرحلة كان يعيش حياة بسيطة يسعى وراء لقمة العيش بنفسه بعيدا عن كل ما يؤدي إلى الظلم أو العنف، أو الإكبار، وقد كان يسير نفسه ولا يتحكم فيه أي شخص آخر، حيث كانوا متساوين، ولا وجود لما يسمى بحق الأقوى على الضعيف.

لم ينفك روسو يؤكد أن الحالة الطبيعية بمثابة النموذج النظري، ويسمى الاستدلالات الافتراضية، والشرطية لأجل التحليل لا لأجل التقرير.³ وهذا معناه أن روسو قد اعتبر الحالة الطبيعية مجرد افتراض، الغاية منه تحليل تلك الفترة التي كان يعيش فيها الإنسان.

ويرى روسو بالإيمان بالطبيعة الإنسانية الخيرة، الحرة والمتفردة، تحترم ذات الفرد وتعطيه حقه في إنماء قدراته من الطبيعة الخيرة، وتلبية رغباته، وإعطائه الحرية فيما يختاره ويتفق مع ميوله ورغباته، وهذا ما يؤكد بعض التربويون أمثال " فروبل " و " بستالوزي "، و " هربارت "، من أنه من الخير واللازم ترك الأطفال يتعلمون من الطبيعة، بعيدا عن

¹ إسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، ص 22.

² المرجع نفسه، ص 23.

³ جان جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر، بولس غانم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص 15.

المجتمع، لأن له قدرات فطرية تمكنه من أن يجرب ويختبر نفسه¹. وعلى هذا فإن التربية الطبيعية هي عبارة عن اتجاه يذهب إلى الإيمان بأن للطفل قدرات فطرية تولد معه، وبإمكانه أن يمارسها بعيدا عن المجتمع، وبإمكانه أن ينمو نموا طبيعيا بدون تدخل المجتمع وعلى المجتمع أن يحترمها ولا يتدخل إلا بما يساندها. وعلى هذا يقول روسو : " إن كل شيء يخرج خيرا من يدي مبدع الأشياء، ولكنه يفسر ويشوه بين يدي الإنسان ". ولعه هذا يلخص طريقته تلك في التربية، وهي الطريقة التي تعتمد على العودة إلى الطبيعة والبساطة والفضيلة².

واتخذ روسو من الوجدان (الشعور) بديلا للعقل، الذي مجده فلاسفة عصره، واعتبر القلب منبع العواطف السامية والمشاعر الفاضلة، وتركيزه على الجانب الوجداني في أعماق وأعمق تجلياته، جعله يضيف على الطبيعة مسحة رومانسية جمالية، فهي لم تعد تعني ذلك النظام الرياضي المحكم الذي قال به نيوتن، بل ذلك العالم العفوي الجميل الذي لم يمسه الناس ولم تغير الحضارة من معالمه، ومن هذا المنظور كانت الطبيعة مجالا خصبا، استمد منه روسو مواد للتعبير عن أحاسيسه³.

وعلى هذا نجد أن روسو بالرغم من أنه من أبناء القرن الثامن عشر إلا أن هذا لم يمنعه عن الخروج عن روح فلسفة عصره، ونقدها في أهم الركائز التي كانت تقوم عليها ألا وهي العقل، وميله إلى العاطفة والشعور واتخاذهما منبعاً يضيف على الطبيعة لمسة جمالية، والتي اعتبرها روسو ملهمته.

وبهذا فهو لم يقتصر على وصف مناظرها، وإنما ركز أيضا على تحليل المشاعر المختلفة التي تتولد داخل النفس عند التحامها وامتزاجها بالطبيعة، امتزاجه يجعلها تشعر

¹. أحمد علي الحاج محمد : فلسفة التربية، ص 126.

². جان جاك روسو : أحلام يقظة جوال منفرد ، تر، ثريا توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د.ط ، 2009، ص 26.

³. فتحة بورحلة : سؤال الحداثة والتنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي، منشورات ضفاف، لبنان، ط1، 2013، ص23.

بالسعادة أحيانا والكآبة أحيانا أخرى¹. وفي هذا الصدد يقول: "ليس من شيء يدعو إلى الأسى كمشهد ريف عار أجرد، لا تعرض للعين منه سوى أحجار وظمي ورمال، ولكن ما أن تحي الطبيعة الأرض فتعاود ارتداء ثوب عرسها بين خير الماء وأهازيج الطيور حتى تقدم للإنسان بين تناسق المشهد الوحيد في العالم، الذي لا تكل منه عيناه وقلبه أبدا"². حيث يوضح روسو لنا حبه بصدق للطبيعة وهيامه، بجمالها والارتقاء في أحضانها، وكل هذا بعيدا عن الحضارة الزائفة والمصطنعة، والمجتمع باعتباره عالم ملئ بالهموم والمشاكل .

تطرق روسو، بكثير من التركيز إلى تحليل الصفات الأساسية التي يتمتع بها الإنسان في حالة الطبيعة، ومن أجل تحقيق هذا الهدف تتبع تاريخ الجنس البشري لمعرفة ما هو مصطنع ومضاف إلى الطبيعة الأصلية بفعل الحضارة والتاريخ، ولاكتشاف طبيعة الإنسان في صفائها الأول ارتأى روسو ضرورة العودة إلى الوراء والسير التراجعي، وتحقيقا لهذا الهدف قال بمفهومين أساسيين هما: الإنسان الطبيعي المختلف عن الإنسان المدني، وحالة الطبيعة كحالة سابقة عن تأسيس المجتمع المدني³. وبهذا فقد خلق روسو معارضة بين كل من الطبيعة والحياة في المجتمع، حيث لاحظ بأن المدنية لم ترقى كثيرا بالإنسان، وأما في الحالة الطبيعية كان الإنسان أفضل من الإنسان الصناعي الذي استقر في المجتمع.

وفيها أيضا استيقظ في نفسه المراهقة حب الطبيعة الحلوة المنعزلة، ذلك الحب الذي جعل منه أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر⁴. وعلى هذا نجد أن روسو يشخص الطبيعة ويسقط الذات عليها، من أجل إبراز المشاعر التي تختلج داخل نفسه، من خلال حبه الكبير للطبيعة.

¹ فتحة بورحلة : سؤال الحداثة والتتوير بين الفكر الغربي والفكر العربي، ص 23.

² جان جاك روسو: أحلام يقظة جوال منفرد، ص 165.

³ فتحة بورحلة، سؤال الحداثة والتتوير بين الفكر الغربي والفكر العربي، ص 28.

⁴ جان جاك روسو: أحلام يقظة جوال منفرد، ص 13.

والأمر الذي ينبغي إدراكه في نظر روسو، هو أن طبيعة الإنسان البدائي تختلف في خصائصها ومكوناتها عن طبيعة الإنسان التاريخي، خاصة أن الأخيرة حصيلة تراكمات متتالية وقعت عبر فترات زمنية متعاقبة، محدثة تغيرات جذرية في طبيعة الإنسان¹. وعلى هذا فإن روسو قد ميز بين من عاش في الطبيعة، وإنسان أفسدته الحياة الاجتماعية .

وقد اعتبر روسو أن الطبيعة خيرية تخضع لقوانين ثابتة ونواميس متناهية في الدقة والترتيب، وتحمل في طياتها صفة التوازن والتكامل معا، وهنا يقول روسو: "إن كل شيء يكون حسنا طالما كان في يد الطبيعة، وكل شيء يصيبه الفساد إذا مسته يد الإنسان".² وعليه هذا فإن روسو يرى بأن الطبيعة هي خيرة في حد ذاتها ولها قوانينها تخضع لها في شكل تربيته وأن تدخل الإنسان فيها يؤدي إلى فسادها وفقدانها لخيرتها .

ولقد تميزت حياة الإنسان في حالة الطبيعة بالعزلة والبساطة والبراءة، واقتران وجوده في هذه الحالة الحيوانية العمياء بالعجز عن تكوين مفاهيم أخلاقية، فكان يخضع لمجموعة من الغرائز أهمها حب الذات والشفقة التي تقوم مقام القوانين، والعادات والفضيلة، إنها الصوت الداخلي النابع من أعماق كل فرد والذي لا يجزؤ أحد على عصيانه أو تجاوزه، وهذا الشعور أكسب إنسان الطبيعة تهذبا في المشاعر وميلا منقطع النظر إلى نجدة الآخرين وتخفيف آلامهم، وانتشار الشفقة بين الناس في حالة الطبيعة يفسر حسب روسو أسباب تجاوز الإنسان لكل مظاهر الاعتداء³. حيث نجد أن روسو اعتبر الإنسان في الحالة الطبيعية، إنسان بريء لا يعرف معنى للظلم أو الاعتداء على الآخر، وبهذا فإن حياته في تلك المرحلة جعلته يمتلك عدة ميزات، تختلف عن وجوده في الحالة المدنية.

¹. جان جاك روسو: أحلام يقظة جوال منفرد، ص 28.

². أحمد علي الحاج محمد : فلسفة التربية، ص126.

³. فتيحة بورحلة: سؤال الحداثة والتتوير بين الفكر الغربي والفكر العربي، ص 28 - 29.

وبالإضافة إلى الشفقة كان الإنسان الطبيعي يتمتع بالحرية ويتجلى المعنى العميق للحرية الطبيعية، وهي خاصة لا يمكن التنازل عنها أبداً، في استقلالية الإنسان وعدم خضوعه لأية سلطة تمارس عليه القمع الاجتماعي والسياسي، وفي سلوكه العفوي النابع من الغرائز، وإلى جانب الحرية هناك صفة أخرى تميز الإنسان عن الحيوان وتمنحه التفوق عليه، إنها القدرة على تحقيق الكمال، وهي الخاصة التي تنمي الخصائص الأخرى وتمنح الإنسان دون غيره من الكائنات القدرة على تغيير وضعه الحيواني¹. وعلى هذا فإن روسو يوضح بأن الإنسان في الحالة الطبيعية كان يعيش في حرية تامة، ولا تفرض عليه أي سلطة، وقد اعتبرها من الأمور التي لا يمكن التنازل عليها والتي بدورها حققت له العديد من الخصائص، جعلته يتميز عن النوع الآخر من جنسه، ومنحته التفوق وتحقيق أعلى مراتب الكمال .

وقد جعل روسو من الحرية المبدأ الأساسي لكل وجود إنساني، فانهدام الحرية معناه انعدام إنسانية الإنسان سواء العقلية أو الخلقية، وفي هذا يقول: "إن تخلي المرء عن حريته هو تخل عن صفته كإنسان، عن حقوقه في الإنسانية بل عن واجباته، إذ أن تنازلاً كهذا مناف لطبيعة الإنسان وانتزاع كل حرية من إرادته هو إنتزاع كل أخلاقية من أفعاله". فالإنسان وإن كان يتمتع في الحالة الطبيعية بحرية طبيعية، فإنه في الحالة المدنية يفقدها فيكتسب حرية مدنية، لأن الحرية الطبيعية ليس لها حدود سوى قوى الفرد، بينما الحرية تكون محدودة بالإرادة العامة².

وعلى هذا فإنه إذا كانت الطبيعة قد أعدتنا لتكون أصحاء، يمكن أن نعتبر أن هذا الأمر هو الذي دفع روسو إلى القول: "أن حال التفكير مناقضة للطبيعة، وأن الإنسان الذي يفكر حيوان فاسد". وبما أن الإنسان خاضع لقليل من علل الأمراض في حال الطبيعة، فإنه

¹. فتحة بورحلة: سؤال الحداثة والتتوير بين الفكر الغربي والفكر العربي، ص 29.

². إسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، ص 127.

لا يكون محتاجا إلى علاجات إذن، وأقل من ذلك احتياجه إلى أطباء، ولا يكون النوع البشري أسوء من جميع الحيوانات الأخرى في هذه الناحية¹. وفي هذا إشارة روسو إلى أن الإنسان في حالة الطبيعة يسير نفسه بعيدا عن أي تفكير، وهذه الحياة هي بسيطة لا تحتاج في نظره إلى مساعدة شخص آخر، فهذه الطبيعة تجعل منه قويا، يعتمد على نفسه في كل شيء.

وقد قال روسو في موضع آخر: "كل ما سيكون من لدن الطبيعة سيكون صادقا، ولن يكون في خطابي من الغلط إلا بقدر ما قد يخالطه شيء من عندي بلا قصد والأزمان التي سأتكلم عنها بعيدة جد البعد: فلکم تغيرت أيها الإنسان عما كنته ! ما سأصفه لك إنما هو، إذ جازت العبارة، حياة نوعك البشري وفق الصفات التي تلقيتها، ثم أفسدتها تربيتك وعاداتك، ولكن دون أن تتمكن من تدميرها، إنني أحس أن هناك سنا يريد الإنسان الفرد أن يتوقف عندها ولك أنت أن تبحث عن السن التي قد تود لو توفق عندها نوعك"². وهذا معناه أن روسو يرى بأن كل ما يصدر عن الطبيعة غير قابل للتكذيب، وأن كل ما تمده الطبيعة للإنسان هو في حد ذاته نزيه، وخاضع لمبدأ الصدق، وأن أي تغير يطرأ فهو نتيجة لما قد يمارسه الإنسان من عادات .

وقد اعتبر روسو أن رجل الطبيعة، لم يعد يمكننا أن نعرفه تاريخيا لأنه تحول وتلاشى منذ ما قبل التاريخ، ولكن التفكير يخولنا تصور الخطوط الكبرى لما كان عليه، وعلى هذا يصفه روسو بقوله: " عاريا سادرا في الغابات، لا صناعة له، ولا نطق، ولا مسكن، ولا حروب، ولا حاجة إلى أبناء جنسه، ولا رغبة في أذية أي منهم، حتى ولا معرفة أحد منهم

¹. جان جاك روسو : أصل التفاوت بين الناس ، تر، عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د. ط ، 2012، ص 37.

². جان جاك روسو : خطاب في أصل التفاوت وفي أسس بين البشر، ص 68.

شخصيا، ليس هو عرضة إلا لقليل من الشهوات، إنه يكفي نفسه بنفسه، وليس له إلا العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة، ولا ينظر إلا إلى ما يظنه مفيدا له".¹

وعلى هذا يبين روسو أن هم الإنسان في المحلة الطبيعية اقتصر على الأشياء المحيطة به، والتي يرجوا من ورائها فائدة للحفاظ على بقاءه، فلم يكن يهتم إلا بالشيء المفيد له، وقد اتخذ الطبيعة مصدر رزقه، حيث كان يقات من أشجارها ويصطاد الحيوانات لكي يسد جوعه، وبهذا لم تكن لديه أي موهبة يعتمد عليها في تحصيل رزقه، فالطبيعة هي التي تهبه كل شيء.

وقد كتب روسو في مقاله الأول عام 1750 يقول: " يروق للمرء أن يتذكر صورة بساطة الأزمان الأولى، إنها شاطئ جميل تزينه يد الطبيعة وحدها، ونحن لا نكف عن التطلع إليه، ونشعر نادمين بأننا ننأى عنه ". فالإنسان بدأ بحالة الهمجية، وكان قوي البدن، لا يعرف الكلل، مزودا بحواس دقيقة، وكان أفضل الحيوان تكوينا، واثقا من التغلب على الوحش بمهارته وقوته، فكان في غنى عن كل هذه المخترعات العميقة التي نعتقد اليوم أنها لازمة، وسرعان ما أكسبته الحياة البسيطة الخشنة مناعة، ووقته شر الأمراض التي مأتاها ترفنا ورذائلنا². ومنه فإن روسو يرى في إنسان الطبيعة، إنسانا قوي البنية، صلب المراس، لا تقهره المصاعب والشدائد، ويمكن له تجاوزها لأن هذه الحياة أكسبته مناعة تقية من كل شيء يترصد له.

وقد عزى روسو إلى رجل الطبيعة غريزتين أساسيتين، فالغريزة الأولى تدفعه إلى المحافظة على وجوده حيث يقول روسو: " إن الخيرات الوحيدة التي يعرفها في العالم هي الطعام، والأنثى والراحة، أما الشرور الوحيدة التي يخشاها فهي الجوع والجوع". والغريزة

¹. أندريه كريسون: روسو حياته فلسفته منتخبات، تر، نبيه صقر، منشورات عويدات، بيروت، ط.4، 1988، ص 80 - 81.

². نجيب المستكاوي: جان جاك روسو حياته مؤلفاته غرامياته، دار الشروق، بيروت، ط1، 1989، ص152.

الثانية هي استعداد للرحمة، وكره فطري لرؤية ابن جنسه يتألم، ومبدأ سخاء، وسماح، وإنسانية، ورعاية وصداقة، يتبع رجل الطبيعة، إذن، المثل القائل: " اعمل صالحك بأقل ضرر ممكن تسببه للغير ". وحينما يأكل ويشبع فهو في سلام مع الطبيعة كلها، وصديق لجميع أبناء جنسه¹. وبهذا فإن روسو يوضح لنا بأن لإنسان الطبيعة غرائز، تقوده في مسار حياته، فهو لا يمكن أن يفعل شيئاً ذا قيمة إن لم يكن ينطلق في فعله هذا إلى تحقيق وجوده والحفاظ عليه، وثانياً امتلاكه لتصرفات إنسانية اتجاه أبناء جنسه، وعليه يعتبر روسو أن حالة الطبيعة تمثل الوضع الأكثر ملائمة للجنس البشري .

وقد اعتبر روسو أنه لم يكن بين الناس في الحالة البدائية أي نوع من الصلات الأخلاقية أو الواجبات المشتركة، ولذا فلم يكن ممكناً أن يكونوا أخياراً أو أشراراً، ولم يكن عندهم فضيلة ولا رذيلة، ويرى روسو أننا قبلما أن نقدر هذه الحالة ينبغي أن نستبعد معتقداتنا الباطلة، وأن نفحص بميزان العدالة ما إذا كانت فضائل المتحضرين أكثر من رذائلهم من الشؤم والضرر، وما إذا كان في تقدم معارفهم ما يعوض الشرور التي يصيبون بها بعضهم بعضاً كلما تعلموا الخير الذي يجب أن يفعلوه².

فالإنسان في حياته في الطبيعة حسب روسو لم يكن شريراً أو خيراً، وإنما كان يعيش حياة بسيطة بعيدة عن كل ما يؤدي إلى الشرور أو الضرر بشخصه.

¹. أندريه كريسون: روسو حياته فلسفته منتخبات، ص 81.

². نجيب المستكاوي: جان جاك روسو حياته مؤلفاته غرامياته، ص 152.

المبحث الثالث : مفهوم الإنسان عند روسو بين الطبيعة والمجتمع.

لا يمكن أن يعدوا تعريف الإنسان أكثر من أنه حيوان عاقل، ولا يستطيع المرء أن يقول في البداية إلا أنه حيوان مثل الحيوانات الأخرى، فهو يتجول في الغابات باحثاً عن الغذاء، ويحاول أن يحفظ وجوده، ولكنه ليس حيواناً شرهاً عدوانياً بطبيعته بالنسبة لكل عضو آخر من أعضاء نوعه.¹

لا ينبغي أخذ كلمة حيوان بالمعنى المبتذل للبهيمة، ولكن هو الكائن الذي ينضج بالحياة، والذي ميز عن الحيوان بالعقل .

ثمة خاصيتان تميزان الإنسان عن الحيوانات الأخرى، وتأخذان مكان العقلانية من حيث إنها الخواص المحددة للبشرية، الخاصية الأولى هي حرية الإرادة، فالإنسان ليس موجوداً تحدده غرائزه، إذ أنه يستطيع أن يختار، ويقبل ويرفض، إنه يستطيع أن يتحدى الطبيعة، والوعي بحرية دليل على روحانية نفسه، إنه على وعي بقوته الخاصة، أما الخاصية الثانية وهي الخاصية التي يمكن الشك فيها على الأقل فهي كماله، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يطور ملكاته بالتدريج، وينقل هذا التطوير إلى النوع كله.²

فالإنسان من الناحية الطبيعية حر، وله مميزات عن بقية الأنواع الأخرى، فقد ميز بملكة العقل التي في إمكانه أن يطورها، وبالتالي فهي جزء دائم في هذا النوع، وكما أنه يمتلك قابلية الكمال، وهو وحده يسعى إلى بلوغ هدفه، والذي غايته الوصول إلى درجات عليا من التحضر، وذلك عن طريق تطوير ملكاته الطبيعية بشكل تدريجي.

¹. ليونستراوس: تاريخ الفلسفة السياسية من جوك لوك إلى هيدغر، ج: 2، تر، محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص 143.

². المرجع نفسه، ص 144.

ويمكن أن يقال على أساس هاتين الخاصيتين الأساسيتين للإنسان، إن الإنسان الطبيعي يتميز بأنه لا يمتلك، في الغالب طبيعة على الإطلاق، وبأنه إمكان *Potentialité* خالص*. فليست هناك غايات نهائية، ولكن هناك إمكانات فقط، لا يمتلك الإنسان تحديداً، لأنه الحيوان، ويقوده هذا التكوين بعيداً عن قناعاته الأصلية إلى بؤس الحياة المدنية بيد أنه يجعله قادراً على أن يسيطر على نفسه وعلى الطبيعة أيضاً¹. فالإنسان الطبيعي يستمتع بعاطفة وجوده الخاص فهو إمكان خالص في حد ذاته، وكما أنه خلال حياته يسعى للحصول على الإمكانات الضرورية له، وذلك من خلال أن يفرض نفسه ووجوده في الطبيعة التي احتوته.

وقد كان الإحساس الأول للإنسان هو إحساسه بوجوده، وجل عنايته منصرفة إلى المحافظة على ذاته، وكان إنتاج الأرض يكفل له حاجاته، وكانت غريزته تهيئه إلى كيفية الاستفادة من هذا الإنتاج، فالجوع وغيره من النوازع والمثيرات دفعته لأن يجرب أنماطاً مختلفة من الحياة والوجود، فقد دفعه أحدهما للتكاثر من أجل أن يحافظ على نوعه، وهي نزعة فطرية ليس للوجدان دخل فيها². وهكذا انصب اهتمامه على قضاء حوائجه من خلال الطبيعة وما تنتجه، وذلك من خلال ميوله الذي دفعه للبحث عن أساليب ليسد جوعه، ويحافظ على نسله، وهذا ما جعله يخوض العديد من التجارب، ويعتمد على أنماط شتى في حياته.

*. إمكان خالص: *Potentialité* إمكان: يطلق في الفلسفة الحديثة على حرية فعل الشيء وهذا المعنى قريب من معنى الوسع والطاقة نقول ليس في وسعه أن يفعل كذا، أي لا يقدر عليه. وخالص: خلص خلوصاً صفاً وزال شوبه، والخالص من الألوان ما صفاً ونصع، وتحقيقه أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفاً وزال عنه ما يشوبه سمي خالصاً. (انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 135-518).

¹. ليونستراوس: تاريخ الفلسفة السياسية من جوك لوك إلى هيدغر، ص 144.

². جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي أو القانون السياسي، تر، عبد العزيز لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2011، ص 144.

وهكذا كانت حياة الرجل الأول، حياة حيوان تسيره غرائزه وأحاسيسه، دون استغلال لأي من المواهب أو القدرات التي حبته بها الطبيعة، ولكن سرعان ما فرضت الظروف والصعوبات نفسها وحتمت عليه الالتجاء للتفكير في محاولة علاجها وإخضاعها له.¹

فالإنسان في حياته الطبيعية لم يكن يعرف كيفية تسيير قدراته، وهذا ما أدى به إلى البحث عن حلول لها، مما جعله أو فرض عليه أن يفكر في إيجاد أساليب للخروج من هذه المعوقات التي حالت دون الاستفادة من أي قدرة يمتلكها.

لقد ميز روسو بين إنسان الطبيعة كما خرج من يد صانعه، وإنسان الإنسان كما شكله المجتمع بواسطة التربية والتعليم، عبر نشر العلوم وتلقين الفنون، سعيد بطبعه، شقي بثقافته، نجاته في نبذ الزخارف المكتسبة والعودة إلى براءته الأولى.² اعتبر روسو أن إنسان الطبيعة حر في ذاته، وهو الذي يسير نفسه على عكس الذي يندمج في المجتمع بما يحتويه من أفراد الذين يساهمون في اكتسابه عادات والتي من خلالها يمارس حياته.

والإنسان كما كونه الطبيعة، ولبلوغ هذه المعرفة لا بد أن تميز في الإنسان ما كان ملازماً له منذ البداية عن جميع التغيرات التي أحدثها تعاقب الأزمان والأشياء في جبلته الأصلية، ومن المؤكد أن الفصل بين ما هو فطري وما هو مصطنع في طبيعة الإنسان الراهنة ليس بالأمر السهل، فقد غير التقدم، وتراكم الأخطاء والمعارف الجديدة، وصدمة الأهواء المدمرة، غيرت جميعها النفس البشرية حتى بات صعباً تعرفها، ومع ذلك فإن البحث عن طبيعة الإنسان الحقة أمر واجب لا غنى عنه.³ فقد أحدث تعاقب الأزمان تغيرات في طبيعة الإنسان الذي كان يتدبر شؤونته بنفسه، ولا يعيش مع الآخرين، حيث أصبح من

¹. جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي أو القانون السياسي، ص 114.

². جان جاك روسو : دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا ،تر، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2012، ص9.

³. ف. فولغين: فلسفة الأنوار، تر، هنرييت عبودي، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 2006، ص 201.

الصعب معرفة النفس الإنسانية، ويبقى البحث في هذه الذات أمر لا بد منه، وكما أن التطور الذي حدث ترك أثرا بليغ في شخص الإنسان إلى درجة انه أصبح من الصعب معرفته، غير انه من الضروري البحث عن ذات الإنسان الحقة.

واعتبر أن الإنسان ليس مدنيا بطبعه، وإنما جملة من المصادفات قادت إلى التآنس والانتظام في مجتمع مصطنع، ومعنى ذلك أن المجتمع المدني في النظرية الروسية هو محض تركيب اصطناعي تولد عن إدارة حرة وعن اختيار واع وطوعي، ولهذا السبب لا بد في نظر روسو من عقد لتأسيس المجتمع.¹

وكان روسو يرى أن المجتمع البدائي عرف حاله الإنسان الطبيعية، والقانون الطبيعي الذي يتمتع جميع الناس في ظلّه بالمساواة والحرية وبالأستقلال، بعضهم عن بعض، كان الإنسان البدائي يعيش على الطبيعة قويا، صلبا، وهو يتبع رغباته وأهوائه الناتجة عن دوافعه الطبيعية وهو لذلك لا يعرف الملكية ولا يمارس النزاعات، إن حالة الإنسان الطبيعية هي أسعد حالاته جميعا، إلا أن هذه الحالة الطبيعية الهادئة البريئة قد تلاشت تحت ظروف معينة وتلاشت معها حرية الأفراد والمساواة التي كانت سائدة في المجتمع البدائي.²

ومن هذا المنظور كانت الطبيعة مجالا خصبا استمد منه روسو مواد للتعبير عن أحاسيسه ولم يقتصر في ذلك على وصف مناظرها، وإنما ركز على تحليل المشاعر المختلفة التي تتولد داخل الإنسان عند التحامها وامتزاجها بالطبيعة وذلك من خلال تحقيقه لرغباته وأهوائه البريئة، حيث تمتع في ظلّها بالحرية وحقق كل ما يصبوا إليه وما يرغب فيه، وذلك كله بعيدا عن كل ما يؤدي إلى النزاع أو حب التملك.

¹. جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ص 260.

². فيصل عباس : الفلسفة والإنسان جدلية العلاقة بين الإنسان والحضارة ، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط ، د.ت، ص 182.

والقانون الطبيعي لا يفرض وجوده على الإنسان إلا بقدر ما ، وهو أن هذا الأخير هو عبارة عن كائن عاقل وحر، فهو يخاطب الإنسان بصوت الطبيعة بالذات، ونجد روسو إذ ينطلق من هذه الأطروحة التي اعتبرها بديهية في نظره، حيث دعا إلى تتحيه الكتب جانبا للتأمل بأول أفعال النفس البشرية وأبسطها، فإذا ما جردنا الكائن البشري من سائر المواهب الخارقة للطبيعة التي استطاع أن يظفر بها ومن جميع الملكات التي لم يتمكن من اكتسابها إلا بعد طول ترق، وباختصار إذا ما نظرنا إليه كما خرج من بين يدي الطبيعة لوجدنا فيه حيوانا أقل منه بأسا وقوة من بعض الحيوانات الأخرى.¹ فقد اعتبر روسو أن الإنسان هو عبارة عن حيوان عاقل لا تفرض عليه القوانين إلا في حدود ما، فهو حر، وفي نفس الوقت كائن ضعيف عن باقي الحيوانات الأخرى.

واعتبره روسو أفضل الحيوانات تنظيمًا، وأقل رشاقة وخفة، فهو يأكل حتى الشبع تحت سنديانة، ويشرب حتى الارتواء من أول جدول يصادفه، ويفترش الأرض عند جذع الشجرة التي أمنت له طعامه، وهكذا تكون حاجاته قد أشبعت.² فقد كانت حياته تتميز بالبساطة وكان جل اهتمامه هو السعي وراء لقمة العيش، وكل ذلك مصدره هو الطبيعة التي وجد نفسه فيها.

ويقول "ان الإنسان كان متوحدا في الغاب، لا يعرف أهله، ولعله لم يكن يعرف أولاده، لا لغة له ولا صناعة، ولا فضيلة ولا رذيلة من حيث إنه لم يكن له مع أفراد أنواعه أية علاقة يمكن أن تصير علاقة خلقية، فقد كان يعتاد الآفات الجوية وتشتد بنيته بمقاومتها، ولم يكن يصاب إلا بالقليل من الأمراض، فقلما كان يحتاج إلى الأدوية، وكانت حاجته إلى الأطباء أقل، وإنما تعطل الصحة بالإسراف في المعيشة، وبالميل المصطنعة

¹. ف. فولغين: فلسفة الأنوار، ص 212.

². المرجع نفسه، ص 212.

وما ينتج عنها من إجهاد جسدي وعقلي".¹ وعليه فانه وخلال تواجده في الطبيعة قد اكتسب العديد من الخصال التي ساعدته في تجاوز كل ما يعترضه من مخاطر وصعوبات، فلم يكن يحتاج لأي كان وبنيته القوية جعلت منه شخصا يقاوم كل الظروف، ولا يحتاج لان يفكر أو أن يجهد نفسه في ذلك.

وكما أن الوظائف النفسية للإنسان البدائي هي في مستوى وظائف الحيوانات فالابتغاء أو عدم الابتغاء أو الرغبة والخشية، هي مجرد الأفعال الأولى، ولربما الوحيدة، التي تصدر عن نفسه فأهوائنا تحددها إما نزوات الطبيعة، وإما معارفنا، فنحن لا نرغب في الأشياء أو نتوجس منها خيفة إلا بحكم الأفكار التي تكونت لدينا عنها، وبالتالي فالإنسان المتوحش محروم من كل معرفة، وذلك لأنه لا تساوره إلا أهواء بدائية، متوالدة عن نزوات طبيعية، وبهذا فان من يعيش في الحالة الطبيعية، فلن يكون محتاج إلى أكثر من الغريزة.² وبهذا فالإنسان في هذه الحالة يكون معزولا منفردا، ولا يحتاج إلا إلى نفسه أو ذاته وما تحتويه من ميول والتي تقوده إلى العيش في الطبيعة، وبالرغم من انه لا يمتلك أي معرفة تجعله يسير أموره، إلا أن هذا لم يمنعه من تسييرها عبر غريزته الطبيعية.

وكان الإنسان المتوحد طيبا تأخذه الشفقة من رؤية الموجود الحاس يهلك أو يتألم، وبالأخص إخوانه في الإنسانية، حيث رأى روسو بأن هوبز أخطأ في قوله إن حالة الطبيعة تتميز بالطمع والكبرياء، فإن هاتين العاطفتين لا تتشآن إلا في حال الاجتماع، فالإنسان المتوحد كان كاملا سعيدا، لأن حاجاته قليلة، وإرضائها سريع، ولأنه كان حرا مستقلا، فكان كل إنسان مساويا لكل إنسان "إذا كانت الطبيعة أعدتنا لنكون أصحاء فإني أكاد أجرؤ على التأكيد بأن حالة التفكير مضادة للطبيعة، وأن الإنسان الذي يتأمل هو حيوان فاسد".³

¹. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف القاهرة، ط5، د.ت، ص 202.

². ف. فولغين: فلسفة الانوار، ص212.

³. المرجع نفسه، ص213.

حيث اعتبر روسو أن الإنسان في الحالة البدائية كان يتميز بعدة خصال نبيلة، فكان يحس بالآخر عندما يشعر بالألم، وهو يرفض أي شيء يقود إلى التفكير والتأمل في الطبيعة، وقد عاش فيها سعيداً، وكانت متطلباته ضئيلة وتحقيقها ليس بالأمر الهين، وكان كل واحد مساوياً للآخر.

فكيف خرج الإنسان من هذه الحالة الأولى؟ لقد عبر هذه المرحلة بأن عرضت له أسباب طبيعية، كالجدب والبرد القارص والقيظ المحرق، ومن خلال كل هذا اضطر إلى التعاون مع غيره من أبناء نوعه تعاوناً مؤقتاً، وقد كان الغرض منه الصيد في البر والبحر وكذلك تربية الحيوانات لتوفير القوت، وبعد ذلك اضطرتهم الفيضانات والزلازل إلى الاجتماع بصفة مستديمة.¹ فالأمر الذي دفع بالإنسان لكي يتخطى هذه الفترة البدائية، والذي كان فيها منفرداً، هو احتياجه إلى مساعدة الآخر لتجاوز مشاق ومصاعب الحياة والطبيعة.

وقد تعلم بالخبرة أن الرغبة في المتعة والرفاهية تعتبر الحافز الوحيد لتصرفات الإنسان، وعندئذ وجد نفسه في مركز يسمح له لأن يميز بين الحالات القليلة والتي يجد في الصالح المشترك تبريراً لمساعدة إخوانه، وبهذه الطريقة بدأ الأفراد يكتسبون تلقائياً بعض الأفكار عن الواجبات المشتركة وكيفية تحقيقها، وطالما كان ذلك يمس وجودهم ومصالحهم الظاهرة، فهم لم يرهقوا أنفسهم مشقة التفكير لا في المستقبل البعيد أو حتى الغد القريب.²

وبهذا فقد عرف الإنسان بأن المتعة في الحياة هي السبب الأساسي في كل تصرفاته، ومن خلالها اكتسب أفكار عن أشياء يجب القيام بها، والطريقة التي من خلالها يقوم بهذه الأعمال، ولكن رغم ذلك لم يكن مشغولاً في التفكير في المستقبل، ولا حتى في الغد، فقد ترك الأمور تسير وحدها دون أن يتعب نفسه.

¹. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 203.

². جون لوك: اخترنا لك الحكومة المدنية، تر، محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ط. د. ت، ص 117.

وعلى هذا فقد ساعدته الخطوات الأولى التي قطعها في طريق التقدم على أن يخطوا الخطوات التالية بدرجة أسرع، وذلك من خلال الكف عن النوم في ظل الأشجار أو داخل الكهوف التي كانوا يحتمون فيها، وهذا ما دفعهم إلى اختراع أدوات مختلفة كالأحجار الصلبة والتي استخدموها في حفر الأرض، وقطع الأشجار، والتي بنو من خلالها أكواخا، ثم بعد ذلك تعلموا كيف يغطونها بالطين، وقد اعتبرت هذه المرحلة ثورية نتج على أثرها العائلات والأسر.¹ حيث رأى روسو بأن محاولات الإنسان الأولى دفعته إلى تخطي تلك المرحلة من خلال اكتشافه أدوات ساعدته في العيش بطريقة أفضل، والانتقال من حياة العزلة إلى تكوين أسرة، ومنه كانت بالنسبة لروسو عبارة عن فترة ثورية عرفت العديد من التغيرات، والتي تمخض عنها نشوء عائلات بعد أن كان من قبل وحيدا.

وكان من هذا ظهور أسمى المشاعر والأحاسيس التي عرفتھا الإنسانية وهي عاطفة الأبوة والأمومة، ومنه أصبحت كل أسرة تكون مجتمعا في حد ذاتها، والذي يقوم على الحرية والوجود المشترك بين الأفراد، وعلى هذا تحولت وظيفة المرأة التي كانت تمارس كل الأعمال التي يقوم بها الرجل، إلى اهتمامات أخرى والتي تولدت الرغبة في الاستقرار والشعور بأنه شيء ضروري لا بد منه، فصارت تلزم الكوخ وترعى الأطفال، بينما يخرج الرجل للسعي وراء القوت والطعام، وبهذا فقد كلاهما الكثير من طابع التوحش والهمجية.²

ويمكن أن يقال بأن الإنسان وبعد اكتسابه لمشاعر وأحاسيس، دفعته إلى أن يكون أسرة ملتزمة ومبدأها هو الاشتراك والتعاون بين كلا الجنسين وكان نتيجة لذلك أن عرف كل منهما مهامه في هذه الحياة، وبالتالي فقد قام كل بأداء الدور الذي كان يجب أن يقوم به.

وهكذا بتبلور المشاعر والأحاسيس بالتدرج أخذ الإنسان بدوره يتخلى عن الكثير من النوازع البدائية والسمات الوحشية، وبدؤوا يعتادون التجمع أمام أكواخهم حول شجرة كبيرة

¹. جون لوك: اخترنا لك الحكومة المدنية، ص 119.

². المرجع نفسه، ص 119.

حيث يمضون أوقاتهم في الرقص والغناء يربطهم التآلف والمحبة.¹ وبعد أن تولى الإنسان عن كل الأفعال التي كان يمارسها من قبل، والتي كانت من دون تفكير وجد نفسه أمام أسرة والتي بدورها أنتجت مجتمعا وهذا ما أدى به إلى التعود والعيش في مجتمع تجمععه المحبة بين أفرادها.

وعلى هذا فإن التطور الذي مر به الإنسان في انتقاله من حياة الفطرة الأولى إلى حياة المجتمع، والمسافة الشاسعة التي تفصل بين الحياتين، يقدم الحل الكثير من المشاكل السياسية والأخلاقية التي وجد الفلاسفة صعوبة في علاجها اليوم، وبهذا فإننا لو تتبعنا هذا التطور في كل مراحله على مر العصور، لرأينا كيف تغير جوهر الإنسان وعواطفه ولكننا قد عرفنا سر تحول رغباتنا إلى أخرى جديدة، واكتشفنا كيف اختفى جوهر الإنسان الأصلي بالتدريج، وكيف قدم لنا المجتمع صورة مصنوعة لإنسان وعواطفه زائفة وكلها لم يكن لها وجود في الطبيعة².

ورغم ما حدث من تطور في حياة الإنسان بعد مروره من المرحلة الأولى والتي غلب عليها الميل إلى الطبيعة، والعيش في الإنفراد إلى حياة التآنس والتجمع، بعدما كان يعيش بمفرده في الطبيعة مثله مثل أي حيوان آخر، وهذا ما جعل الفلاسفة يجدون صعوبة في علاج المشاكل التي تمس هذا الإنسان، والتي ترجع إلى هذا التمايز بين هذين الفترتين .

والاختلاف كثير بين الإنسان المتوحش المتمدين، فبينما يتنفس الأول نسيم السلام والحرية وليس لديه من رغبة الحياة والحرية من العمل، نجد الرجل المتمدين يسعى طوال الوقت ويقدر زناد تفكيره ليهرب عن مشاغل أخرى يذيق فيها وجوده، وهو يقتل نفسه في العمل ليجد مركزا لائقا في الحياة، أو ينبذ الحياة ليكتسب الخلود، وفي الواقع أن هذا الاختلاف إنما يرجع إلى أن الإنسان المتوحش يعيش داخل نفسه، أما الإنسان الاجتماعي

¹. جون لوك: اخترنا لك الحكومة المدنية، ص 121.

². المرجع نفسه، ص 150 - 151.

فيعيش دائماً خارج نفسه.¹ وبهذا فإن الإنسان البدائي لم يكن لديه أدنى رغبة في الحياة كالعامل وغيره من الأمور الأخرى، على عكس الإنسان المتمدين الذي كان يلهث وراء مشاغل الحياة لكي يصنع لنفسه وجوداً في هذه الحياة، والفرق بينهما أن الأول يركز على باطنه الداخلي، وأما الثاني فيعتمد على الباطن الخارجي لنفسه.

وبهذا فإنه يوجد تفاوت بين البشر، فهل يقره القانون الطبيعي؟. ولهذا وضع روسو خطابه الثاني الذي قال عنه في اعترافاته: "لقد اجترأت وأنا أقارن إنسان الإنسان مع الإنسان الطبيعي، على أن أكشف لهم، في كماله المزعوم، عن المنبع الحقيقي لشقائنا". إنسان الإنسان، أي الإنسان بكل الإضافات التي أضافتها إليه الحياة الاجتماعية، ويشبهه روسو بغلاوكوس، إلا له البحري الذي تختبئ صورته تحت الترسبات والطحالب التي تغطيه، وبغلاوكوس كان أفلاطون وأفلوطين شبها النفس النازلة من مقامها السماوي والممتلئة بدنس العالم الحسي². حيث اعتبر روسو أن انتقال الإنسان من حياته الأولى إلى التمدن، هو السبب الأول في شقائه، وذلك من خلال الأشياء التي ضمنتها له الحياة في المجتمع المدني.

إن ما يقترحه روسو نظير ما فعل أفلوطين، هو عمل تطهيري بمعنى التمييز بين الأصل والاصطناعي في الإنسان، على اعتبار أن الأصل هو حالة الموجود الفاعل دوماً بموجب مبادئ يقينية ثابتة، وتلك هي حالة الطبيعة التي تشابه حالة الإنسان قبل الخطيئة³.

ومعنى ذلك أن روسو يدعوا إلى معرفة الشيء الطبيعي في الإنسان والمصطنع، وقد اعتبره هو الأصل الذي يوجد دوماً وعن طريق مبادئ تتميز باليقين والثبات.

¹. جون لوك: اخترنا لك الحكومة المدنية، ص 151.

². أميل برية: تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، ج 5، تر، جورج طرابيشي دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 2، ص 194.

³. المرجع نفسه، ص 195.

غير أن لروسو عن الإنسان على النقيض من فولتير أيضا رؤية تاريخية، فقد وجدت في تاريخ البشرية مرحلة سابقة على الاجتماع، تم لها تجاوزها من جراء ظروف كان من الممكن ألا تحدث، وأغلب الظن أن روسو كان يحرص على أن ينحي جانبا كل ما كان من شأنه أن يخلع على فكره مظهر الأسطورة، من قبيل أسطورة العصر الذهبي أو الفردوس الأرضي، فقد جهر بالقول بأنه يسلك مسلك الطبيعيين الذين يضعون فرضيات عن تكوين العوالم لا يرسموا تاريخها الفعلي، وإنما ليميطوا اللثام عن طبيعتها¹. وبهذا فإن روسو حاول أن يتجاوز كل ما كان في إمكانه أن يلغي الطبيعة، وذلك على اعتبار أنه سلك طريق الطبيعيين، الذين رأوا بأن الطبيعة هي الحقيقة الوحيدة في هذا الكون، وأن حياة الإنسان جزء منها.

فالإنسان في الحالة الطبيعية لا يكون على صلة إلا بالأشياء وحدها، فيقول لب بقالب ثباتها وبقائها، وصحيح أنه تبقى متاحة لع على الدوام إمكانية الخروج من هذا القالب لأنه عامل حر وقادر على الثنائي بنفسه عن الغريزة وقاعدة الطبيعة². وعليه فهو يمتلك الحرية في اختيار ما يراه مناسب له، حيث يمتلك إمكانية البقاء أو الخروج من هذه الحالة.

ومن أشد الأمور قسوة أيضا هو أن جميع ترقيات النوع البشري كلما أبعدته من حاله الابتدائية بلا انقطاع، جمعنا معارف جديدة ونزعنا من أنفسنا وسائل اكتساب ما هو أهم من جميعها، وتلك من بعض الوجوه قوة دراسة الإنسان الذي جعلنا معرفته خارج طاقتنا، ومن السهل أن يدرك وجوب البحث، في التحولات المتعاقبة التي اعتورت النظام البشري، من الأصل الأول للفروق التي تميز بين الناس المتساوين فيما بينهم بحكم الطبيعة، كما كانت حيوانات كل نوع قبل أن تدخل علل فزيوية كثيرة إلى بعضها من الاختلافات³.

¹. اميل بريه: تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، ص 196.

². المرجع نفسه، ص 197.

³. جان جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، ص 23-24.

لقد اعتبر روسو أن الإنسان كلما ابتعد عن حالته البدائية، توصل إلى حصوله على معارف خارجه عن تلك المرحلة التي كان يعيش فيها.

ويعرض روسو في الخطاب في التفاوت مسألة الشر، "فالبشر أشرار غير أن الإنسان طيب بطبيعته، فما الذي أمكن أن يفسده إلى هذه الدرجة، إلا أن يكون سببه تلك التغيرات التي طرأت على جبلته"، بالإضافة إلى ذلك التقدم الذي أحرزه وتلك المعارف التي حازها ويرجع هذا الانحطاط إلى أسباب عارضة، وليس إلى قانون حتمي، إنما هو روسو كما تشف عنه الاعترافات، روسو الجائع إلى العزلة والحياة البسيطة والصدقة، روسو الذي تجرح نفسه المواضع والأحكام المسبقة والأحقاد التي يلاقيها فيما حوله، وقد كانت معضلة فلسفته هي معضلة حياته¹. وعليه فإن روسو يرى بأن الإنسان يولد وهو يحمل في نفسه الطيبة، والتي هي نابعة من طبيعته، غير أنها لا تبقى على هذه الحال لأنها تتعرض إلى الفساد، والسبب في ذلك يعود إلى الأشياء التي يتلقاها من الخارج أو المحيط.

¹. إميل برهيه: تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، ص 198.



تطبيقات التربية عند روسو

المباحث:

❖ الآليات الأولى للطفولة وما تقتضيه

من عناية

❖ الاخلاق ودورها في نمو الطفل

❖ التربية الذهنية وانعكاساتها

❖ المراهقة وما تقتضيه من تعليم ديني

لقد تأثرت التربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالتطورات التي عرفتھا مختلف العلوم الإنسانية والتجريبية، كعلم البيولوجيا والفيسيولوجيا، وكذا علم الاجتماع وعلم النفس وغيرها، مما انعكس إيجابا على بلورة الفكر التربوي الحديث خاصة بعد أن طرح روسو أفكاره التربوية الجريئة، والتي غيرت الكثير من أوضاع التربية والتعليم لا سيما تلك المتعلقة منها بالطفل، حيث نجد أن روسو قد هاجم التربية التقليدية، والتي نظرت إلى الطفل كراشد مصغر، وقد بزغت آراءه في التربية في كتابه إميل، والذي قسم التربية فيه إلى خمسة أقسام يتناول كل قسم مرحلة من مراحل عمر الإنسان، والتساؤل الذي يمكن طرحه من خلال محتوى هذا الكتاب هل يدعوا روسو إلى تربية الطفل عن طريق المربي، أم الرجوع إلى الطبيعة؟.

المبحث الأول: الآليات الأولى للطفولة وما تقتضيه من عناية.

لقد جاء فكر روسو كرد فعل للتقاليد التربوية السابقة، وهذا ما ضمنه في مؤلفه إميل، ففي صدد تكلمه عن تربية الطفل ودور الأب نحوه فهو يرى بالاحتفاظ بالطفل على صورته الفطرية، منذ ولادته إلى أن يصير رجلاً، وكمثال أننا حين نطالع في سيربلوترك كيف كان أغسطس، وهو إمبراطور الدنيا وعاهلها الأعظم يقوم على تعليم أحفاده بنفسه الكتابة والقراءة، والسباحة ومبادئ العلوم.¹ وعليه فإنه يركز على تنمية الميول الفطرية للطفل والاعتناء به وباحتياجاته، وذلك من خلال رفضه للتقاليد التربوية التي كانت تمارس على الطفل فيما سبق.

ويؤكد روسو على أهمية الأبوين كمربين طبيعيين للطفل، فالأبوين هما الأكثر قدرة على أن يمنحا الطفل الحنان الطبيعي الضروري لنموه إنسانياً وأخلاقياً على نحو طبيعي، فالأب هو المعلم الطبيعي والأم هي حاضنته، ونجد أن روسو قد أعلى من شأن الأم على نحو خاص في العملية التربوية، وكان يلح على دور الأم بقوله: "إذا أردتم أن تعيدوا كل إنسان إلى واجباته الأولى عليكم البدء بالأمهات وستعجبون لما تحدثونه من تغيرات".² وهنا نرى بأن روسو قد أعطى أهمية بالغة للأبوين اتجاه أبنائهم وركز على ما يستطيعون تقديمه للأبناء على خلاف ما يقدمه الآخرون، لأنه إذا ترك الأبناء بين يدي مربين آخرين لن يشعروا بالدفء والحنان الأبوي، ويفقدون كل ما يجعلهم يرتبطون ببعضهم البعض من جهة، وبالوالدين من جهة أخرى. حيث يقول روسو: "العادة الوحيدة التي يمكن أن تجعل الطفل يأخذها هي أن لا يأخذ ولا واحدة".³

¹. جان جاك روسو : إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 41 - 42 .

². نقلاً عن : علي أسعد وطفة: الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو، ص 20.

³. Rousseau Jean Jacques, Emile, livre. paris, Flammarion, 1966, coll. "gf" (désormais g f), p

وبالفعل فإنه يجب تعويد الطفل على حياة البساطة والتكشف والصبر والاعتدال في كل شيء والاعتماد على النفس وتحمل الألم، وفي الوقت نفسه تمتع عن تذليله وتعويده على الحصول على كل شيء .

وأما فيما يخص تخير المؤدب ينبغي حين يتخير الأب لابنه مؤدبا، أن يتحرى في ذلك المؤدب كل المزايا التي تسمح له بالوصول إلى الهدف الذي يرغب في تحقيقه، ولكي يبين روسو تلك المزايا، وكيفية التأديب والتربية، رأى بأن يتخذ تلميذا وهميا، والذي يجد توجيهها مخالفا لتوجيه الأبناء الآخرين، حيث اعتبره طفلا غير عادي ولا بد له من نظام خاص به، ويشير روسو إلى أنه ينبغي على المربي الذي يقوم على تربية الطفل أن يكون شابا، وأن يكون في مقدوره مصاحبة تلميذه وكسب ثقته بمشاركته في لهوه ومسراته.¹ وعليه فإن روسو يقترح على الأب أثناء بحثه عن مربي لابنه مجموعة من الشروط التي لا بد من توفرها لكي يحقق بذلك العملية التربوية على أكمل وجه، ويصل بذلك إلى النتيجة المنتظرة والتي يرغب في تحقيقها، وكل هذا يكون عن طريق الاقتراب من التلميذ ونيل ثقته.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقا فإنه على المربي أن يقف متفرجا إذا رآه يعرض حياته للخطر، وذلك بسبب قلة تجربته، وبذلك وجب أن ينبهه وينهاه بقوة.² وبهذا يكون على المربي أن يعامل الطفل كطفل لا كراشد، وأن ميوله وخصائصه وحاجاته يجب أن تكون مركز العملية التربوية لا رغبات وطموحات الكبار. وبالنسبة لروسو القاعدة الأهم والأكثر نفعا " ليست هي ربح الوقت ولكن هي بالعكس أن تضيع الوقت، يجب على المربي حسبه أن يضيع الوقت من أجل ربحه. وهذا معناه أنه ليس على المربي أن يحتسب الزمن والوقت في عملية نمو الطفل وتربيته، بل يجب عليه أن يبدد الزمن ويهدر إمكانية الإحساس به،

¹. جان جاك روسو، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، 44-45 .

². يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 204.

وكلما كان نضجه في ظرف زمني أطول كلما كان ذلك في مصلحة البناء والتكوين والإعداد التربوي الجيد.

وقد اعتبر روسو أن المربي الذي يستبدل تلميذ بتلميذ كل بضع سنوات، ليس هو ذلك الذي يتحدث عنه وإنما الذي يعنيه هو الذي لا يتسع عمره إلا لتلميذ واحد، وبذلك فهو لا يعرف تباينا في مراحل التعليم والتأديب، بل يعرف علما واحدا ينبغي أن يلقيه الأطفال، وذلك هو علم واجبات الإنسان ولهذا يفضل روسو أن يسمى المعلم أو المؤدب مربيا لأنه سيكون معنيا بإرشاده أكثر من عنايته بتلقيه العلم، ولما كانت الحاجة إلى تربية التلاميذ سوى العادين منهم، فانه إذا أتيح لي أن أختار فسوف أختار طفلا متوسط الذكاء، وسأفترض أن تلميذي إميل هكذا.¹ وبهذا فالمربي الجيد في نظر روسو هو الذي يهب نفسه لتربية الطفل من خلال توجيهه أكثر من أي شيء آخر، وأما بالنسبة للطفل فيرى بأنه من الضروري تربية العادين منهم لا غير، وهو بدوره فضل أن يختار طفل متوسط الذكاء، ولذلك فقد كان المعلم في نظره هو ذلك المربي الذي يعنى بتعليم الطفل الواجبات التي يقوم بها، من خلال أن يبين له الكيفية للقيام بذلك.

وعليه فمؤلف إميل ينص على أنه لا يمكن لأي مربي أن يطور أساليبه التربوية دون أن يكون له فهم للطفولة وطبيعتها وأحوالها، ولذلك فقد جاءت دعوة روسو الشهيرة القاضية بضرورة حسن معرفة الطفولة.² لأن لمرحلة الطفولة أهمية خاصة في حياة الفرد، وذلك لاعتبار أنه في تلك الفترة توضع البذور الأولى لشخصية الطفل من جهة، ومن ناحية أخرى يتكون الإطار العام لشخصيته، والتي يكون لها الأثر الكبير في تشكيل شخصية الطفل في الفترات التي تليها. حيث يقول: "المعلم الصغير، اريك فنا صعبا، هو أن تحكم من دون

¹ جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 46.

² خالد الخطاط: مفهوم الطفولة عند روسو من التربية إلى علم التربية، نقد وتوير، العدد الأول، المغرب، 2015، ص 243.

مبادئ وتفعل كل شيء من عدم القيام بأي شيء¹. وهو يشير من خلال قوله إلى أنه على المعلم إتباع مبدأ النمو الطبيعي فلا يدفع التلميذ للتعليم أو يجبره عليه.

وفي هذا إشارة إلى المعلم أن لا يتدخل في كل شيء ولكن يجب أن يترك للطفل حرية المبادرة، وأن لا يجبره على القيام بأشياء لا تدخل في حاجاته، وبعبارة أخرى يتعلم الاعتماد فقط على نفسه، فمستويات التربية عند روسو هي ثلاثة، واحدة يأخذها من الطبيعة، وثانية من الأشياء، أين يكون فيها تدخل الإنسان جزئي، وثالثة يأخذها الطفل من الإنسان، وهذه الأخيرة هي التي يعتقد روسو أن الإنسان ينحل بسببها، والانحلال هنا بالمعنى الروسي هو تغيير الميول الطبيعية إلى ميول يكون منشؤها هو المجتمع والهدف منها هو المجتمع.² وعليه فإن روسو يعتبر أن الطفل أثناء العملية التربوية يجب أن ينتقل من دور المشاهدة والاستماع، إلى مركز الاهتمام واستغلال الخبرة الشخصية أي من متعلم سلبي إلى متعلم فاعل ومتفاعل .

وهذا كله يعود إلى تركه للاعتماد على شخصه، ويرى بأنه يستمد هذه التربية من ثلاث مستويات وركز فيها على الطبيعة وأن الإنسان هو الذي يتسبب تغييرها من طبيعية تسودها البراءة إلى اجتماعية يسودها الفساد على حد تعبيره. هل روسو هنا بحكم ميوله إلى الطبيعة والحرية يريد أن يقول لنا دعوا الطفل يأخذ ما يريد؟، يعني أن الطفل لا يجب أن تكون لديه أي عادة معينة حصرية، أي من شأنها أن تتغلب على الأشياء الأخرى، خاصة منها السيئة التي تتأتي له من المجتمع الذي يخلق احتياجات كاذبة" على سبيل المثال الرجل الذي يتعلم

¹.Rousseau Jean Jacques, Emile, livre, 4^e, p, 149/, oc . I v , p , 362 .

².FEDI Laurent , « Les par adoxes éducatifs de Rousseau », Revue philosophique de la France et de l'étranger, 4 / 2011, (Tome 136), p 487 – 506 ,Dis pénible en Ligne

URL:<http://www.Cairn.info/revue-philosophique-2011-4-page-487.htm>

استخدام فقط يده اليمنى يجد نفسه غير قادر على استعمال اليسرى إذا لزم الأمر".¹ وبهذا فإن روسو يرفض أن تتكون لدى الطفل أي طباع من المجتمع لأنه يعدها غير صالحة له. وكما أنه في هذه المرحلة نجد أن روسو يحتج على القمط المستعمل في لف المواليد، والضغط على حرية الطفل وقصره على قضاء وقته داخل البيت ومحاربة ميوله الطبيعية، ورغباته وعقابه قبل أن يتكون لديه مفهوم الخطأ والصواب والثواب والعقاب، وهو يسرف في امتداح حياة الريف، والحرية والرياضة والألعاب، حيث يقول: "يزداد ميل الطفل إلى الأمر بازدياد ضعف جسمه كما يزداد إلى ميله إلى الطاعة بازدياد قوته.... إن الأهواء تجد مأواها في الجسد الضعيف".² وعليه فإن روسو يرى في أن الطبيعة هي التي جعلت الإنسان صالحاً.

وما على التربية إلا أن تتركه يعيش في أحضانها، وتمنعه من الاحتكاك بالمجتمع، وذلك لكي لا يخرب هذه الحياة الصالحة، وبهذا فقد أعطى روسو الأولوية للطبيعة واعتبر بأن لها دور فعال في تربية الطفل، ومنحه العديد من المزايا التي تجعله مختلفاً عن باقي ذوي جنسه. فكان يرى أن التربية أو الطفولة ككل يجب أن تتميز عن المراحل الأخرى، فلا بد من إعطاء الطفل مجال من الحرية ومعاملته أو لا وقبل كل شيء على أساس أنه طفل، وهذا ما أثبتته الدراسات المعاصرة في ميدان السيكلوجيا، أنه يستحسن ترك الطفل يستمتع بطفولته ما بين الولادة وسبع سنوات قبل الدخول إلى المدرسة، فالسنوات الستة الأولى مهمة في حياة الطفل وله احتياجات قبل دخوله المدرسة.³ ومنه فإنه يركز على معاملة الطفل

¹ FEDI Laurent , « Les paradoxes éducatifs de Rousseau », Revue philosophique de la France et de l'étranger, 4 / 2011, (Tome 136), p487-506 , Disponible ligne

URL: <http://www.cairn.info/revue-philosophique-2011-4-page-487.htm>

². فاخر عاقل: التربية قديمها وحديثها، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1974، ص153 .

³. UNESCO. «L'enfant, et development de l'naissance à 6 ans, mieux le connecter pour mieux l'auder », Paris ,centre international de enfance , November 1976,p,5-

7. "brochure"disponible en ligne: URL: <http://unesdoc.unesco.org/images/0002/000280/028099.pdf>, Consulté le 14/01/2017

كطفل وليس كراشد، وأن يكون التعليم تلقائي أي بحرية، بعد أن يعيش الطفل سنواته الأولى ويتمتع بها قبل أن يلتحق بالمدرسة.

ومع ولادة الطفل ومجيئه لهذه الحياة، تبدأ معها احتياجاته، والتي من بينها أن تكون له مرضع، وحذا لو كانت أمه هي التي تؤدي واجبها نحوه، حيث قام روسو بتقديم تعليمات لها، ورأى بأن تطبقها وذلك حرصا على مصلحة طفلها، في حين إذا دعت الضرورة إلى البحث عن مرضعة أخرى غير أمه فكان من الواجب أن نجد من يخلف مكان الأم، رغم أنه ليس من السهل إيجاد من تصلح لهذه المهمة، وعليه حسب روسو أن الأغنياء عند احتياجهم لمرضعة، فإنهم يتركون الأمر للطبيب فهو الذي يختار في حين يرى هو بأنه سيختار بنفسه إميل معتمدا في ذلك على عمر الحليب ونوعه، وذلك باعتبار أن الحليب في بدائية يكون تقريبا كالماء، وهو ما قصدت به الطبيعة أن يكون غسيلا للأمعاء الطفل، ومع مرور الوقت يتغير اللبن إلى الأفضل، غير أن هذا الأمر غير كافٍ لأنه قد يكون الحليب صالح ولكن يمكن أن تكون المرضع سيئة¹. وإضافة إلى ما سبق ذكره يرى روسو بأنه لا لزوم لتسخين ماء الحمام، الذي يستحم به الطفل واعتبر أن الكثير من الشعوب دفعت بأطفالها إلى مياه الأنهار والبحار، وكانت نتيجة لذلك أنه ولد فيهم حالة من الضعف حالت دون تحملهم الظروف الطبيعية، ولذلك فقد ركز على أن يكون استحمامهم شتاء وصيفا في ماء بارد، وعليه أن يستمر في هذه العادة طوال حياته، ليس لأنها تتعلق بنظافته وصحته، بل لأنه يعود عضلات الجسم المرونة واحتمال الجهد والحرارة والبرودة². ومنه فإن روسو يدعو إلى تعويد الطفل على الأشياء التي تجعله يتغلب على مصاعب الحياة والعيش في الطبيعة وتحمل ظروفها القاسية التي تجعل منه شخصا قويا بإمكانه أن يتجاوز كل ما يقف أمامه في الحياة التي تنتظره، والتي من خلالها يكتسب جسم قوي يمتلك القدرة على تحدي المخاطر التي تقف أمامه أثناء تواجده في الطبيعة.

1. جان جاك روسو : إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 56 - 57.

2. المصدر نفسه، ص 61 .

وعليه فقد اعتبر روسو الأب والأم المربين الطبيعيين للطفل، حيث يركزان على إعداده جسميا، ولكن بطرق تختلف عن الطرق التقليدية المقيدة لحريته، ويجنب في هذه المرحلة التربية الخلقية والعقلية، وأن يبعد عن كل شيء يقف في سبيل رقي الطبيعة الإنسانية، ويقوم الأبوين في هذه المرحلة بتحديد مفردات الطفل اللغوية، كما أنه من الضروري أن يعرف الطفل النطق بكلمات أكثر من قدرته على التفكير، وبما يتناسب مع هذه المرحلة، ورأى أن يؤخذ الطفل إلى الريف ليعش في أحضان الطبيعة بعيدا عن شرور المدن .¹ وبهذا تتطوي مهمة الأبوين في هذه المرحلة على التكوين الجسمي للطفل، ولكن بعيدا عن أي تقليد أو محاولة لتقييد الطفل وأن يفرض عليه أي شيء لا يرغب فيه، وكما يقومان باختيار المفردات التي يتعامل بها الطفل، والتي تتماشى مع هذه الفترة من حياته، وكل هذا يكون في وسط الطبيعة بعيدا عن كل ما يتعلق أو يمد بصلة للمدينة.

¹. نعيم نجيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 171 .

المبحث الثاني : الأخلاق ودورها في نمو الطفل .

حتى إذا ما جاءت المرحلة الثانية من الطفولة وهي التي تمتد من الخامسة إلى الثانية عشرة عند روسو بدأ الاهتمام بصورة أوسع بتكوين الصفات الخلقية هذا بالإضافة إلى الاستمرار في التركيز على أهداف المرحلة التي سبقتها، ومن الصفات الخلقية التي وجب الاهتمام بتنميتها من بينها نجد صفة الشجاعة، التعود على النقشف وتحمل الألم، والاعتماد على النفس، ومنه فإن كل هذه الصفات وغيرها يجب غرسها في نفس الطفل في هذه المرحلة عن طريق الخبرة والتجربة، لا عن طريق الوعظ والتلقين.¹

وعليه فإنه روسو يرى بلزوم ترك الولد يتعلم بالتجربة والنشاط الحي في الطبيعة، والابتعاد عن التعليم النظامي، وكما ينبغي ألا يتعلم إلا الأشياء التي تتناسب مع عمره وتفكيره واهتماماته، وقد انصبت هذه الفترة على التربية الأخلاقية وذلك بالاعتماد وعدم إهمال ما جاء في السنوات الأولى كتكملة لهذه المرحلة.

وبالفعل فقد اعتبر روسو هذه الفترة من أدق مراحل الحياة البشرية، ويجب أن يتحكم فيها مبدءان فالأول لكون التربية سلبية وثانيهما وجوب التدريب الأخلاقي عن طريق النتائج الطبيعية، وعدم القيام بأي شيء مما يكون نفس الطفل أو يقحم فيها المبادئ خلافا لما هو مألوف من إعطائه مختلف الأفكار فالطفولة غايتها الذاتية وإنما تريد الطبيعة أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يصبحوا رجالا، حيث يقول روسو: "ربّ الجسد والأعضاء والحواس والقوى، ولكن دع الروح مستريحة أطول مدة ممكنة".² وبهذا يمكن للأطفال أن يشاركوا كأفراد أحرار في حياتهم الخاصة بهم، عند بلوغهم سن العقل أو الرشد، أي في حدود سن الثانية عشر، بمعنى أن الطفل يجب أن ينشأ دون تدخل الكبار، إضافة إلى إرشاده ليعاني

¹. عمر محمد التومي الشيباني : تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 177.

². فاخر عاقل : التربية قديمها وحديثها، ص 153.

من تجربة العواقب الطبيعية لسلوكياتهم وأفعاله الخاصة، فسيرشد نفسه عندما يجرب عواقب أفعاله.

وقد اعتبر روسو أن غالبية القواعد الأخلاقية مبنية على التناقض، والوصية الوحيدة التي تناسب الأطفال من كل الوجوه هي " ألا يسيئوا إلى أحد، فإن جميع الناس يفعلون الخير أحيانا، ولكن القليلين منهم جدا هم الذين لا يسيئون إلى أحد مطلقا، وهؤلاء وحدهم هم الفضلاء بمعنى الكلمة".¹ وبهذا فإن انفعالات الطفل في هذه المرحلة تمتاز بالهدوء والاعتزان، فهو لا يفرح بسرعة ولا يغضب بسرعة كما كان الحال في الفترة التي سبقتها، فهو يفكر ويدرك ويقدر الأمور المثيرة للغضب والانفعال، وكما أنه يميل ميلا خاصا نحو التقليد، وهذا الميل زرعه فيه الطبيعة وجعلته في حدوده شيئا طيبا غير أن يفسد في المجتمع ليغدوا شيئا أو فعلا سيئا يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الأخطاء .

وبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا فإن روسو ينصح الطفل في هذه المرحلة بالتكلم مع غيره، ويسأل ويجيب ويعبر عما في نفسه من أفكار ومعان، وأن يسمح له باللعب والتمتع به إرضاء لميوله ورغباته، ومن الحكمة تقليل الأوامر والتركيز على تربية الحواس وإبعاده عن الأعمال السيئة، وأن يقتصر في التربية على الأشياء التي يفهمها ويحس بها، ويرى روسو "أن على إميل احترام من هم أكبر منه سنا، وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه، وأن يحب العمل والابتكار حتى تظهر قوته ونشاطه".² حيث يزداد اهتمامه في هذه المرحلة بالأشياء والموضوعات المحيطة به فيبدأ في التعامل معها، ويستغل طاقته في الأعمال الموجهة له، وفي تعويده على الاعتماد على نفسه، وبالتالي فهو يحب الاستطلاع واكتساب المعرفة، ولذلك نجده يكثر من التساؤل من كثير من الأمور التي تحيط به .

¹. جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 112.

². نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 171-172.

المبحث الثالث : التربية الذهنية وانعكاساتها .

حتى إذا جاءت المرحلة الثالثة التي تمتد من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة، بدأت التربية العقلية تأخذ مجراها في البرامج التي رسمت لتربية " إميل " بصورة أكثر تنظيماً ولكنها تختلف كل الاختلاف في برامجها وطرقها عن التربية العقلية التقليدية السائدة في ذلك العصر، ومن الأهداف التي تهتم التربية بتحقيقها في هذه المرحلة تنمية ملكاته، وقواه العقلية، وتزويده ببعض المعارف النافعة في الجغرافيا والعلوم الطبيعية، وتحبيب بعض الفنون العملية والحرف اليدوية إليه وذلك كالزراعة والحداة والتجارة.¹ حيث أنه في هذه الفترة يتعلم إميل ما هو عملي ومفيد له، ولذا لا بد من اختيار المواد بدقة وحذر، ولهذا يوصى روسو بتعلم العلوم الطبيعية، وعلى رأسها الفلك ثم الجغرافيا، ولا يتعلمها الفتى من الكتب والخرائط بل من ملاحظة الطبيعة وعن طريق الأسفار، وكما أن هذه المرحلة تمثل النشأة العقلية عند الإنسان في الاستطلاع والقدرة على المناقشة والفهم والتحليل، وتعلم مهنة يدوية منسجمة مع هذه المرحلة .

وبمجرد أن يبدأ الطفل في التفكير والتعقل، يجب أن نحول بينه وبين مقارنة نفسه بسواه من الأطفال، لأنه لن يجني من ذلك إلا إحدى سيئتين : "إما الحسد وإما الغرور، فليكن هو معيار نفسه، فذلك أنفع وأجدى".² وبالفعل فهناك الطفل ذو مستوى العقلي المرتفع، وهناك الطفل ذو المستوى المنخفض، ومنه يجب أن يتجنب كل الفروق التي توجد بينه وبين طفل آخر لكي لا يقع في مشاكل تمس شخصه، والتي قد تؤدي إلى عواقب وخيمة.

وعليه فإن روسو يعي جيداً أن النمو العقلي للطفل يتطلب وقتاً ليس بالهين، فلا ينبغي أن نلهث وراء تقليصه، وألا نسرع في الحكم على حالات أطفالنا العقلية، حيث يوجه لنا دعوة صريحة مفادها "دعوا الحالات الخارقة تثبت نفسها بنفسها، وتفحصوا جيداً

¹ عمر محمد التومي الشيباني : تطور النظريات والأفكار التربوية، ص 177.

² جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 162 - 163.

خصائصها قبل أن تتخذوا لها مناهج خاصة غير المناهج المتبعة في تربية الأطفال العاديين، وامنح الطبيعة الفرصة كي تعمل عملها بهدوء تام، ولا تفسدها بتدخلك المتسرع¹. والجدير بالذكر أن روسو يعتبر أن هذه التربية التي تخص نمو العقل تحتاج إلى فترة، وإلى التمهّل لكي لا نعطي أحكام مسبقة على القدرات الذهنية التي يمتلكها الطفل، وهذا لن يتم في رأيه إلا من خلال الطبيعة، فالطبيعة يتعلم منها الطفل ما يحتاج، والتربية الجيدة في نظره هي السير وفق قوانينها.

وكما أنه خلال هذه الفترة من عمره يزود الطفل بالمعلومات والمعارف، فهذه المرحلة مرحلة علم وعمل وكفاح ودراسة وملاحظة بدافع حب الاستطلاع، ويقصد به التعطش للعلم تعطشا ينشأ عن رغبات الطفل الطبيعية، وقد اهتم روسو بهذه المرحلة اهتماما كبيرا، ويطالب بالاهتمام بفروع المعرفة التي تدفعنا غرائزنا إلى تتبعها ولها فائدة عملية، كما نصح بقراءة القصص التي تدور حول الحياة وفقا لقوانين الطبيعة، وتبرز أهمية الاعتماد على النفس². وبهذا فإن نجاح الطفل يتوقف على نشاطه في كيفية تحصيل المعلومات، وإضافة إلى ذلك أنه ينشأ بسبب حبه ورغباته في الاكتشاف، وذلك لتعطشه للعلم، ويرى روسو بأنه عليه الاهتمام أو الميل إلى المعارف التي بإمكانها إفادته عمليا في حياته العلمية، والتي تكون من قبل الغريزة فهي التي تدفعه لكي يحقق ما يريد، وقد نصحه روسو بالاطلاع على كل ما يتعلق بالحياة والذي لا يكون إلا من خلال القصص وتبعاً لقوانين الطبيعة.

وفي هذا الدور من الحياة تزيد قوة الفرد على حاجاته، وبما أن النتيجة العامة للتدريب العقلي هي زيادة الحاجات دون تنمية القوى اللازمة لتلبية هذه الحاجات، فإنه يمكن الاستفادة من هذا الدور في الحصول على أكثر ما يمكن من معلومات والفضول في ذلك هو التحمس للمعرفة التي تصدر عن الرغبات الطبيعية، لا عن الرغبة في احترام الناس وهو

¹. خاليد الخطاط : مفهوم الطفولة عند روسو من التربية إلى علم التربية، ص 240 - 241.

². نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 172.

الدافع الأهم الذي يجعل الطفل يندفع للحصول على هذه المعارف، فمقياس المعرفة يكمن في فائدتها العملية¹. وبالفعل فالطفل في هذه المرحلة يجب أن يقدم له المعرفة المناسبة له، فمن الضروري تركه يفعل ما يريد في حرية كاملة وذلك اعتقاداً من روسو أن الطفل يتجه بفعله هذا بدافع داخلي، وهو عملية طبيعية تتماشى مع الميول والنوازع الفطرية الداخلية .

ولذلك فمن الواجب أن ندفع جانباً الفروع التي لا يتذوقها الإنسان تذوقاً طبيعياً ونحصر أنفسنا في الفروع التي تقودنا غرائزنا إلى تتبعها، وقد تعلم إميل في جملة ما تعلم صناعة لا من أجل تعلم الصناعة فقط بل من أجل عدم احتقارها، حيث يلح روسو في مناقشاته الطويلة على أهمية العمل اليدوي والنشاط الصناعي في التربية، أي على المزايا الاجتماعية.² وعلى هذا الأساس فإن التربية عملية يجب أن تبدأ من النزعات الغريزية، فهذا هو الأساس الأول الذي وضعه روسو وأكده، فالطبيعة هي الكتاب الوحيد لتثقيف الطفل ورعايته، من خلال استخدام الأنشطة والخبرات المناسبة لمراحل نموه.

وله هو أن يختار، فليس ذلك من حقي وسيهتدي بما قرأه في كتاب روبنسون كروز إلى اختيار مهنة مما احتاج أن يتعلمه، وسيسهل عليه الاختيار لأن تربيته الأولى ساعدته على تمرين عضلاته وحواسه فسوف لا يلزمه سوى وقت قصير لإتقان تفاصيل المهنة، ولذا أتمنى أن يختار إميل مهنة التجار، فهي مهنة نظيفة نافعة يستطيع أن يمارسها في البيت، ومنشطة للجسم وتحتاج لمهارة ودقة وشيء من الذوق.³

ولايتم كل ما تقدم ذكره إلا إذا انطلقنا من تربية الطفل بما يتفق وطبيعته واحترام رغباته وحاجاته الحاضرة، وذلك عن طريق ترك الفرصة له في اختيار المهنة التي تناسبه، والتي

¹. فاخر عاقل : التربية قديمها وحديثها، ص 154.

². المرجع نفسه، ص 154.

³. جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 170 .

تتلاءم مع القدرات التي اكتسبها، وبهذا يتمكن من فرض نفسه، وتبيان قدرته من خلال إتقانه لهذه المهنة، وتعويده على الاستقلال والاعتماد على النفس .

ويرى روسو أنه من الضروري أن تنطلق تربية هذه الملكات من ما هو محسوس وملموس، فمعارف الأطفال مجالها الحواس فالطفل لا يفكر إلا بطريقة ملموسة، ولا يستطيع أن يرتمي بفكره في المستقبل المجرد، لأن عالمه المدرك هو عالم الحاضر الحسي ولما كانت الحساسية شرطاً لتنمية الذكاء في الأطفال كان الانطلاق من تنمية حواس الطفل شرطاً لذلك، وعليه ففي مرحلة الطفولة لا تكون لدى الطفل إلا أفكار جوفاء مشوشة، فالأطفال من منظور روسو يحسون التفكير في أمور محدودة جداً تلك التي تتصل بإحساساتهم واهتماماتهم الفعلية الآنية.¹ وعليه فإن روسو يرى بأنه يجب الاهتمام بتربية الأطفال، لأن الطفولة فترة يعيش فيها الطفل حياة الخبرة من خلال الحواس حيث لا يضطلع في هذه الفترة بأعباء الكبار. فالطفل لم تكن لديه في البداية إلا إحساسات، أما الآن فلديه معان وأفكار، كان من قبل يحس فحسب، وأما الآن فيميز ويحكم وذلك من خلال المقارنة بين إحساسات متعاقبة أو متأنية، ومن الحكم الذي نحكم به عليها تتولد إحساسات معقدة يمكن أن نسميها فكرة أو معنى، والطريقة التي تتكون بها المعاني هي خاصة الذهن البشري، ويرى روسو بأنه يجب أن يدرّب إميل على تصحيح أحكام حواسه بالمقارنة بينها، وبهذه الطريقة يتعلم الحكم العقلي والتمييز الذهني وتتكون لديه المعاني، وسيكون ذلك التدريب بواسطة تجارب مبسطة.² ومنه نرى أن الطفل في انتقاله من مرحلة إلى أخرى يكتسب مهارات تختلف نت فترة إلى أخرى، وبالتالي تجعله يدرك المعاني والأفكار بينما كان في زمن سابق لا يعرف سوى الإحساس، وكما أن هذه المعاني لا تتشكل إلا بواسطة الذهن،

¹. خاليد الخطاط : مفهوم الطفولة عند روسو من التربية إلى علم التربية، ص 241.

². جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 172 - 173 .

حيث رأى روسو بأن يدرّب إميل على كيفية تصحيح الأحكام التي تصدر عن حواسه وذلك من خلال القيام بعدة تجارب .

وبالإضافة إلى أن روسو يرى أنه قد تكون معلومات إميل العلمية محدودة، غير أنها ورغم قلتها جيدة، كلها وصائبة، وأنه قد يجعل الكثير ولكن ما من شيء مما يجهله سيعجز عن معرفته يوما بهذا التكوين العقلي، فذهنه متفتح ذكي مستعد للمعرفة كل شيء، فهو على حد تعبير مونتاني إن لم يكن متعلما فهو قابل للتعلم، وحسبي منه أنه يعرف كيف يكتشف المراد من كل ما يفعله، والسبب في كل ما يعتقده، ومرة أخرى ليس هدفي إطلاقا أن أمنحه العلم، بل أن اعلمه كيف يكتسبه عند الحاجة، وكيف يقدر حق قدره وإن يحب الحقيقة فوق كل الأشياء¹. ومن خلال هذا يبين روسو أن النشاط الذاتي هو السبيل الأمثل إلى اكتساب المهارات والخبرات والمعلومات والمعارف المختلفة، وقد أكد على أن إميل يمتلك تكوين عقلي يجعله قابل لمعرفة كل شيء، وبالرغم من أن له دورا هاما في توجيهه وإرشاده إلا أن هذا لا يعين قيامه بالتعلم نيابة عنه، ومهمته الحقيقية هي أن يساعده لكي يتعلم بنفسه.

وعندما نؤكد من جديد على أهمية التجربة الذاتية ويكون التعليم مناسبا لحاجات إميل وميوله، فإن إميل سيصبح شخصا مجدا هادئا صبورا مملوء بالشجاعة والثقة، وقادرا على أداء وظيفته الحيوية والاجتماعية بصورة تجعله أكثر قدرة على التكيف والاستمتاع بحياته، وتحقيق السعادة الطبيعية المنشودة، وكما يرفض تعليم إميل النحو واللغات القديمة والتاريخ لأنه يريد لإميل أن يعيش في عزلة عن المجتمع وفي دائرة الطبيعة تحديدا². وعليه فإن روسو يلح على أن المتعلم هو مركز العملية التربوية بدلا من المعلم، ووجوب إشراكه بعد مرحلة تربوية معينة يكون قد اكتسب فيها، العديد من الخبرات، في وضع القواعد والقوانين واللوائح التي تحكم تصرفاته في أنشطته التربوية، وضرورة احتكاكه المباشر بالطبيعة.

¹. جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 174.

². علي أسعد وطفة، الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو، ص 24.

وفي منهج التعليم يرفض روسو مبدأ الخطب الرنانة المصقعة ومبدأ النصيح والإرشاد، بل يؤكد على الأهمية الكبرى للممارسة والتجربة حيث يقول: "لنحول إحساساتنا إلى أفكار وعلينا أن نتجنب القفز مباشرة من العالم المحسوس إلى العالم المجرد، ولنتحرك وبأناة وروية من فكرة محسوسة إلى فكرة مجردة، لنتعلم عن طريق الأشياء وعلينا أن نبتعد عن معالجة الأشياء بالرمز طالما نستطيع أن نرصد الأشياء في دائرة المكان والزمان".¹ ومنه نجد أن روسو يشير إلى مراعاة الخصائص الفردية للطفل، حيث يتم السماح له بأن ينمو وفقاً لطبيعته الفردية فلا يجبر الطفل ليكيف نفسه مع التربية السائدة في مجتمعه، بل على التربية أن تتكيف مع حاجات الطفل، وهذه يعني أن لا يعمل أي شيء له ولكن يتركه ليفعل ذلك بنفسه، وأن يشجعه على اكتشاف الأشياء بنفسه، وأن التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة وليس الكتاب المدرسي.

¹. علي أسعد وطفة، الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو، ص24.

المبحث الرابع : المراهقة وما تقتضيه من تعليم ديني .

بعد أن تكون جسد إميل وحواسه ودماعه حتى الآن ولذلك فقد حان الوقت للعناية بقلبه، لقد ربي الطفل حتى الآن لنفسه وبنفسه، وقد كانت محبة النفس هي الدافع الذي يضبطه كما كانت تنشئة الذات والكمال الشخصي الهدف الرئيسي له، وأما الآن فقد جاء الوقت لتربية الطفل تربية تمكنه من العيش مع الآخرين، وتعويد العلاقات الاجتماعية ولذلك فمحبة الآخرين هي الآن الدافع الذي يضبط توجيهه، وكما أن الهدف هو الكمال الأخلاقي والنماء العاطفي.¹ وعليه فإننا نلاحظ أن الطفل في المرحلة السابقة كان يهتم بنفسه وباحتياجاته، وإبراز وجوده أمام مربيه، والسعي إلى الوصول إلى تكامل شخصيته، وقد كان جل اهتمامه بمحبة ذاته، وأما هذه المرحلة فيربي لكي يستطيع التأقلم مع المحيط وأن يتبادل معهم المحبة.

حيث يعتقد روسو أن معرفة الإنسان لذاته سيساهم بمعرفته للآخرين، حتى أن الهدف من الكتابة لديه هي المعرفة ذاته.² ويؤكد ذلك في مؤلفه " Les revries " ¹. وبهذا فإن سلوك الطفل يمتاز في هذه الفترة بالرغبة في التعامل مع الغير والأخذ والعطاء، ومنه فإن معرفة الطفل لذاته والسعي لاكتشافها وبلوغ الكمال، والذي يراود به إكمال الملكات والقوى بتهديبها، من خلال تهذيب الأخلاق وتليين الخصال وكذلك الإبداع والابتكار، أي التفكير .

وكما يرى روسو أن إميل في هذه المرحلة يربي تربية وجدانية خلقية ودينية، فهو حتى سن الخامسة عشر لا يعرف شيئا عن الدين، ولا عن الآداب والأخلاق، ولم يتصل بالمجتمع اتصالا كافيا لمعرفة آدابه وأخلاقه، ولقد رأى أن تكون دراسة الدين في سن العشرين وأن تكون من خلال ملاحظته للطبيعة فمن خلالها يعرف أن هناك خالقا ومنظما لها

¹. فاخر عاقل : التربية قديمها وحديثها، ص155.

2- Jean Jacques Rousseau, les Rêveries du promeneur solitaire, mozambook, 2002,p25.

وللعالم.¹ بالفعل فإن إميل خلال هذه الفترة ينبغي أن يكون على دراية بالأخلاق بكل ما تحمله من معاني وغايات وأهداف صحيحة، إضافة إلى أنه يفترض عليه دراسة كل ما يتعلق بالدين، وكل هذا من خلال الرجوع إلى الطبيعة لكي يدرك أنه يوجد وراء كل هذا مبدع لهذا الكون أو العالم .

ومنه تتولد لدى إميل متى بدأ نمو الحواس يذكي فيه نار المخيلة، ويبدأ بالإحساس بما يعاينه نظراً وهويتاً لشكواهم ويتألم لآلامهم، وعندئذ يصل إلى قلبه أول إحساس بالعطف والحنان، وبذلك تتولد لديه الشفقة التي هي أول شعور رابط يمس قلب الإنسان، ولكي يغدو الطفل ذا حساسية ورحمة يجب أن يعلم أن له نظراء يعانون مثل ما عاناه، ولإذكاء هذه الحساسية ومتابعتها في نموها الفطري واتجاهها الطبيعي، هو أن نقدم للشباب موضوعات يمارس فيها قوة التفتح التي في قلبه، وبهذا تثار لديه الطبيعة الإنسانية والشفقة.² وعليه فالتربية التي يتلقاها إميل في هذه السنوات (من الخامسة عشر إلى العشرين) هي عملية تنمية شخصيته من الناحية الخلقية حتى يصبح قادراً على مؤالفة الطبيعة، ويعمل على إسعاد نفسه وإسعاد الناس، ومن هنا ينشأ لديه إحساس بالشفقة يجعله يحزن بتألم الآخرين ويفرح لفرحهم.

فقد كان يميل لمجموعة من الغرائز من أهمها حب الذات والشفقة التي كانت تقوم مقام القوانين والعادات، إنها الصوت الداخلي النابع من أعماق كل فرد والذي لايجرؤ أحد على عصيانه أو تجاوزه، وهذا اكسب إنسان الطبيعة تهذيباً في المشاعر وميلاً منقطع النظر إلى نجدة الآخرين وتخفيف آلامهم، وانتشار الشفقة بين الناس في حالة الطبيعة يفسر حسب روسو، أسباب تجاوز الإنسان لكل مظاهر الاعتداء.³ ويشير روسو هنا إلى أن ضمير

¹. نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 172-173.

². جانجاك روسو : إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص181.

³. فتحة بورحلة: سؤال الحداثة والتنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي، ص 29.

الطفل يعتبر مبدأ أساسي للتعامل مع الآخرين بفضيلة وبأخلاق عالية يسودها الحب، والشعور بالآخر في فرحه وفي ألمه.

وفي هذا الصدد يقول " إن خير دراسة للإنسان هي التي تتعلق بعلاقاته، فحين لا يعرف إلا وجوده الجسدي يكون الواجب أن يدرس علاقاته بالأشياء، وفي هذا يستخدم طفولته، أما حين يبدأ بالشعور بوجوده الأخلاقي فانه يصبح من الواجب أن ينظر في صلاته مع البشر وذلك لأن هذه الصلة هي الشاغل المشروع لحياته كلها ابتداء من الآن"¹. يوضح روسو في قوله هذا انه بمجرد بلوغ إميل وجوده الجسدي فهذا لا يكفي وبذلك عليه معرفة العلاقة التي تربطه بالأشياء، ولا يكون إلا من خلال طفولته، في حين الجانب الأخلاقي فهو يرجع إلى قرابته مع المحيط باعتبار أن هذه القرابة هي بداية مشروعه في الحياة ومنه يتعلم كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين فهي العملية التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا.

هذا بالإضافة إلى قوله: " تلقيت الدين كما يمكن أن يتلقاه الطفل في سني، بل أكثر من ذلك، ولما أخفي ما أفكر به! طفولتي لم تكن قط تمد بصلة إلى الطفل، شعرت أنني أفكر دائما كرجل"². ومعنى هذا أن روسو قد تلقى الدين كما يمكن أن يتلقاه أي طفل آخر، غير أن الفرق في ذلك لم يعيش طفولته كباقي الأطفال الآخرين فلم يعامل كطفل وإنما عومل كشخص بالغ.

ها قد توصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الشباب، ولكننا لم نبلغ بعد آخر مداه، وليس من المستحسن أن يعيش الرجل وحيدا، وإميل رجل وقد وعدناه بشريكة حياة، فينبغي أن نمناه إياها وهذه الشريكة هي صوفي، وينبغي أن تكون صوفي، امرأة على نحو ما ينبغي أن يكون

¹ . فتحة بورحلة: سؤال الحداثة والتأويل بين الفكر الغربي والفكر العربي، ص29.

². Jean Jacques Rousseau, Les confessions, texts du manuscrit de Genève, 1782, édition EBook gratuity et libbers p62..

إميل رجلاً، أي أن تكون حائزة لكل ما يتفق وتكوين نوعها وجنسها بحيث لمل مكانها جسدياً وخلقياً.¹ ومنه فإن روسو يتحدث هنا عن رفيقة إميل صوفي والتي يختارها طبقاً لشروط ينبغي أن تتوفر فيها.

ففي هذه المرحلة يتعدى إميل سن العشرين من العمر ويصبح شاباً لا يستطيع العيش وحده، لذلك يبدأ بالبحث عن زوجة له ولكنه يبحث عنها في الريف، ويرى روسو أن تكون تربيتها جسمية بالإضافة على تعلم الطهي والموسيقى والتطريز والعناية بالطفل، مع عدم الاهتمام بالعلوم العقلية لأن وظيفة المرأة حسب رأيه إسعاد زوجها وإرضائه وتربية أطفالها، ويتجلى رأيه في تربية المرأة حين قال: "إن المرأة المثقفة وبال على زوجها وأطفالها وعائلتها، وخدمها وعلى كل فرد". وهذه آراء متطرفة من الصعب الأخذ بها في العصر الحاضر.² وعليه فإن روسو ركز على أن تكون شريكة حياة إميل من الريف، وأن تكون قادرة على القيام بمختلف الخدمات من طبخ وخياطة وعناية بالأطفال، كما أنه عليها أن تكون مطيعة لزوجها وتلبي كل رغباته التي تجعله سعيداً وراضياً.

¹. جان جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 234.

². نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 173.

نقد وتقييم:

لقد وجه بعض النقاد نقدا للبعض من آراء روسو، فهذا فولتير يوجه له نقدا مريرا متهما إياه بالغرور، وكما بين النقاد أن التربية السلبية التي نادى بها ربما تؤدي إلى وقوع الأذى على حياة الطفل، وأنها تؤدي إلى الحكم على جميع الأعمال من نتائجها لامن دوافعها، مما يؤدي إلى الحذر أكثر من عملية بناء الأخلاق، فالفضائل الايجابية لا يمكن ان تكون نتيجة لتجنب النتائج غير السارة لذاتية الإنسان، وكذلك اغفل الكتب المدرسية كوسيلة مهمة في العملية التربوية وركز على الخبرات المباشرة¹. وعليه نجد أن روسو بالرغم من الانجازات التي حققها في كتاباته إلا انه لم يسلم من النقد الذي وجهه له بعض الفلاسفة.

وقد وجه النقد إلى فكرة العقاب الطبيعي، فكيف يترك للطفل التعرض للأذى أو الموت لمجرد التعلم من نتائج أفعاله². ومنه نجدان المفكرين قد اعتبروا الطريقة التي نادى بها روسو غير مجدية لأنها تؤدي إلى الضرر بحياة الطفل وذلك لمجرد قيامه بفعل غير صحيح بإمكانه تغييره أو عدم الوقوع فيه من جديد.

¹. نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، ص 174.

². المرجع نفسه، ص 174.

لقد وجه بعض النقاد نقدا لبعض من آراء روسو، فهذا فولتير يوجه له نقدا مريرا متهما إياه بالغرور، وكما بين النقاد أن التربية السلبية التي نادى بها ربما تؤدي إلى وقوع الأذى على حياة الطفل، وأنها تؤدي إلى الحكم على جميع الأعمال من نتائجها لامن دوافعها، مما يؤدي إلى الحذر أكثر من عملية بناء الأخلاق، فالفضائل الايجابية لا يمكن ان تكون نتيجة لتجنب النتائج غير السارة لذاتية الإنسان، وكذلك اغفل الكتب المدرسية كوسيلة مهمة في العملية التربوية وركز على الخبرات المباشرة.¹ وعليه نجد أن روسو بالرغم من الانجازات التي حققها في كتاباته إلا انه لم يسلم من النقد الذي وجهه له بعض الفلاسفة.

وقد وجه النقد إلى فكرة العقاب الطبيعي، فكيف يترك للطفل التعرض للأذى أو الموت لمجرد التعلم من نتائج أفعاله.² ومنه نجد ان المفكرين قد اعتبروا الطريقة التي نادى بها روسو غير مجدية لأنها تؤدي إلى الضرر بحياة الطفل وذلك لمجرد قيامه بفعل غير صحيح بإمكانه تغييره او عدم الوقوع فيه من جديد.



خاتمة

خاتمة:

لقد حاولت هذه الدراسة التحليلية الوقوف عند الخطوط العريضة للتربية الحديثة، والدور الذي يلعبه الطفل في هذه العملية التربوية، حيث سجل روسو اسمه في تاريخ الفكر مربيا وفيلسوبا، وقد كانت فترة حياته الفكرية من اغرب الفترات التاريخية في تاريخ الفكر، إن لم تكن أغربها على الإطلاق، وما يجعلنا نقف في حالة اندهاش من الحياة التي عاشها هو انه وأثناء بحثي هذا وجدت نفسي أمام عبقرية فذة، استطاعت أن تفرض نفسها رغم كل ماعاناه من قهر وألم، وبهذا أسس مملكته الفكرية، وعليه فقد احدث روسو ثورة فكرية في عصره، وفي العصور التي تلتها، وهذا ليس من الغريب أن يكون صاحب أكثر النظريات التربوية عبقرية.

إن ما توصل إليه روسو بفطرته، وعبقريته الأدبية كان يعد بمثابة اكتشاف عن المناطق المظلمة في حياة الفرد، فأراد بذلك أن يحرره من القيود التي فرضت عليه، ومنه فقد جاء لكي يدافع عن الأطفال والمظلومين، وبهذا سعى روسو إلى تحرير الطفل من ظلاميات القرون الوسطى، متخذا في ذلك الطفل كرمز للبراءة، ومنه فان سعادة الأطفال هي هدف التربية عنده، حتى وإذا كان عصره لم ينصفه، إذ عانى في حياته من التشرد والظلم في وطنه مالم يستطع احد أن يتحمله، غير ان هذا لم يمنعه من أن يبرز نفسه ويجعل فرنسا تقتخر به، وهو الذي عاش وحيدا حزينا، ومتابعا من قبل رجال الأمن والسلطات، ومنه فقد تأثر بروسو من جاء بعده في مجال التربية واخذوا عن نظريته للتربية والإنسان.

ولقد ثار روسو على كل التراث القديم في مجال التربية، وحدث انقلابا في كل المفاهيم والرؤى والتصورات، والتربية لاتعدوا أن تكون عادة كما يرى روسو، وعلينا من هذا المنطلق أن نسعى إلى الحد من العادات التي تحيط بالإنسان في مراحل طفولته الأولى خاصة، وذلك من أجل إفساح المجال لقدراته الطبيعية الذاتية، وهذا يعني أن دور التربية عند روسو

إصلاحي ، فعلى التربية أن تقوم بإصلاح ما يفسده المجتمع في الإنسان، وعلى هذا فقد ركز على أن تكون تربية الطفل تربية طبيعية حيث أودع أفكاره الطبيعية هذه في مختلف أعماله ومؤلفاته، بدءا من كتاباته الأولى إلى غاية تأليفه لكتابه الشهير الذي يعرف بإنجيل التربية الحديثة "إميل والتربية"، حيث رأى بأنه من الأجدى أن يترك الفرد للطبيعة وقوانينها، وأن تهئ التربية فرص النمو الطبيعي للإنسان دون تدخل من قبل المجتمع.

ومن الأسباب التي أدت لظهور الحركة الطبيعية والتي أصبح روسو زعيما لها، نجد منها ما هو سياسي، وذلك من خلال السعي لتحسين أوضاع الشعب آنذاك من خلال موقفها ضد مظاهر الظلم الاجتماعي، وإضافة إلى ذلك العوامل الدينية والتي شهدت ظهور عدة حركات دينية جاءت كرد فعل ضد سيطرة الكنيسة ، وغيرها من الأسباب التي جعلت روسو يدعوا إلى العودة إلى الطبيعة ، والتي تعد في نظره خير بيئة يمكن له أن يستقر فيها.

وكما تكلم روسو عن حياة الطفل وقد قسم حياته إلى خمسة مراحل، وكل مرحلة ولها دورها الذي تقوم به، وقد رأى بان طبيعة الإنسان خيرة، وبما أنها كذلك فانه يجب تربية الطفل بعيدا عن الضغوطات الاجتماعية، وكل ما يحيط بالمجتمع ، وان يعتمد على فطرته واستعداداته وقدراته.



قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع :

قائمة المصادر :

أ . باللغة العربية

1. جان جاك روسو : إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، تر، نظمي لوقا، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، د.ت.
2. -----: أحلام اليقظة، جوال منفرد، تر، ثريا توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د.ط، 2009.
3. -----: أصل التفاوت بين الناس، تر، عادل زعيتر، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، 2012.
4. -----: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر، بولس غانم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009.
5. -----: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، تر، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2012.
6. -----: في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، تر، عبد العزيز لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2011.

المراجع باللغة الأجنبية:

1- UNECO. « L'enfant et son développement de la naissance à 6 ans mieux le connecter pour mieux Laide ». Paris. Centre international de enfance, novembre , 1976,p,5-7

2 – Rousseau Jean Jacques, Emile, livre . paris Flammarion 1966.

3- FEDI Laurent , « les par adores éducatifs de Rousseau », Revue philosophique de la France et de l'étranger,4 / 2011,(tome136) p.487-506.Disponible enligne URL :http : Disponible en ligne URL://http//WWW.cairn.info/revue-philosophique.

4-Rousseau Jean Jacques, Emile, livre, gf p.149/oc,t.lv,p.362.

5-Jean Jacques Rousseau, les Rêveries du promeneur solitaire,mozambook,2002.

6- Jean-Jacques Rousseau, Les confessions, textes du manu script de Genève, 1782.

7- Michel Soe tard « Jean Jacques Rousseau » (1712, 1778), per sensitives, paris, UNESCO: Bureau international d éducation, vol,xxiv

قائمة المراجع

1. أحمد علي الحاج محمد: فلسفة التربية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002.
2. اندريه كريسون : روسو حياته فلسفته منتخبات ،تر، نبيه صقر ، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1988.
3. إميل برهيه : تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، ج5 ، تر، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2 ، 1993
4. إسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية ، دار الفجر للنشر والتوزيع، الجزائر ، د.ط ، د.ت.
5. جون لوك: اخترنا لك الحكومة المدنية، تر، محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ط، د.ت.
6. عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، دار القلم، دمشق، 2011
7. عبد الله عبد الدائم: التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، ط3 ، 1973
8. عمر محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوية ، دار الثقافة، بيروت، د.ط ، 1971.
9. ف. فولغين: فلسفة الأنوار ترجمة، هنرييت عبودي ،دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2006.
10. فاخر عاقل: التربية القديمة وحديثها ، دار العلم للملايين، بيروت، 1974
11. فتيحة بورحلة: سؤال الحداثة والتنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي ، ط1، منشورات ضفاف، لبنان، ط1، 2013.

12. فيصل عباس: الفلسفة والإنسان جدلية العلاقة بين الإنسان والحضارة ، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط ، د.ت .
13. ليشتراوس: تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك إلى هيدغر، ج 2 ، تر، محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005.
14. نجيب المستكاوي: جان جاك روسو: حياته مؤلفاته، غرامياته ، دار الشروق، بيروت، ط1، 1989.
15. نعيم حبيب جعيني: الفلسفة وتطبيقاتها التربوية ، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004.
16. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت .

قائمة الموسوعات والمجلات

المعاجم

1. جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج 1، دار الكتابي اللبناني، 1982.
2. مراد وهيبة: المعجم الفلسفي، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2007.

الموسوعات

1. عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة، ج 2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.
2. فؤاد كامل : الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، لبنان، د.ت.

المجلات

1. خالد الخطاط: مفهوم الطفولة عند روسو من التربية إلى علم التربية، نقد وتنوير، العدد الأول، المغرب، 2015.

2. علي أسعد وطفة: الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو، مجلة نقد وتنوير، إصدار خاص، 2015.



فہرس المحتویات

	الموضوع
	الإهداء
	شكر وعرفان
أ	مقدمة
6	الفصل الأول: الإرهاصات الأولى لفلسفة التربية عند جان جاك روسو
7	المبحث الأول: بدايات فلسفة التربية عند روسو
12	المبحث الثاني: الأسباب التي أدت إلى تبلور فكرة التربية عند جان جاك روسو
14	المبحث الثالث: مفهوم التربية عند روسو
20	الفصل الثاني: فلسفة روسو الطبيعية وعلاقتها بالتربية
21	المبحث الأول: العوامل التي مهدت لظهور الحركة الطبيعية عند روسو
27	المبحث الثاني: التربية من المنظور الطبيعي عند روسو
37	المبحث الثالث: مفهوم الإنسان عند روسو بين الطبيعة والمجتمع

50	الفصل الثالث: تطبيقات التربية عند روسو
51	المبحث الأول: الآليات الأولى للطفولة وما تقتضيه من عناية
58	المبحث الثاني: الأخلاق ودورها في نمو الطفل
60	المبحث الثالث: التربية الذهنية وإنعكاساتها
66	المبحث الرابع: المراهقة وما تقتضيه من تعليم ديني
72	خاتمة
75	قائمة المصادر والمراجع
80	فهرس الموضوعات



تم بحمد الله